

الإنسان والخرافة

(الخرافة في حياتنا)

د. أحمد علي مرسى





الإنسان والخرافة (الخرافة في حياتنا)

الإنسان والخرافة

(الخرافة في حياتنا)

د. أحمد علي مرسى





مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

السيدة سوزان مبارك

سلة الأعمال الفكرية

تراف: مصطفى غنايم

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ: هيئة الكتاب

الإنسان والخرافة

(الخرافة في حياتنا)

د. أحمد على مرسي

تصميم الغلاف

والإشراف الفني:

للفنان: محمود الهندي

الإخراج الفني والتنفيذ:

صبري عبدالواحد

الإشراف الطباعي:

محمود عبدالمجيد

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلا بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعاً للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهداً ووعداً ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

مكتبة الأسرة

فائدة :

**ظاهرة كسوف الشمس التي جرت في الشهر
الماضي أثارت الكثير من الشجون التي تداخل فيها
الخيال الجامع مع الحقائق العلمية.**

**وبالرغم من أن هذه الظاهرة الطبيعية قد أصبحت
ومنت فترة طويلة مفسرة علمياً وفلكياً، إلا أن ذلك لم
يمنع من انتشار ألوان متباينة من الخرافات
والتوقعات التي لا تستند إلى أي أساس علمي.**

**وقد يبدو ذلك مثيراً وغريباً في أن تجد الخرافة والأساطير
أرضية تنطلق منها في عصر تميز بالوتيرة السريعة وغير المسبوقة
في الاكتشافات العلمية والتكنولوجية.**

ولعل محاولة تفسير هذا التناقض الواضح من انتشار الخرافة وانطلاقة الثورة العلمية يعود وبشكل أساسى إلى التطورات السريعة والمتلاحقة وأحياناً الدرامية التى جرت، ومازالت تجرى، على الساحة العالمية فى العقد الأخير من القرن، والتى أدت إلى تهميش الأيديولوجيات التى كانت سائدة، وفتحت الباب واسعاً أمام منطلقات وآفاق جديدة لم تكتشف بعد، يختلط فيها العلم والخيال الجامح، والرغبة فى اكتشاف المجهول.

ولا يجب أن ننسى أن اكتشاف المجهول والعجز أحياناً عن تفسير بعض الظواهر كان ومازال الأساس الذى انطلقت منه الخرافة والأسطورة وأيضاً العلوم التطبيقية.

فالأساطير المصرية واليونانية والرومانية القديمة كانت وراء الكثير من الفلسفات والمعتقدات الفكرية أو الأيديولوجية التى حكمت هذه البلدان.

وهل يمكن أن نفصل بين نظرية الأبدية والروح والجسد لدى المصريين القدماء وبين منجزات هندسية وعلمية هائلة مثل الأهرام والمعابد وفن التحنيط؟

وهل يمكن الفصل بين الأساطير اليونانية القديمة فى الإلياذة والأوديسا، وبين المنجزات الفنية والعلمية والفكرية التى خرجت عن أفكار أرسطو وأفلاطون وأبيقور وأرشميدس.

فالإنسانية جمحت دائماً إلى الرغبة، والحاجة إلى معرفة علة الكائنات والأشياء، وإذا لم يسعفها العقل والمنطق فهى تلجأ إلى

الخيال، وينطبق ذلك على الحضارات القديمة مثلما ينطبق على الحضارة المعاصرة.. ولقد كان للأسطورة والخرافة دائماً سحرهما الخاص النابع من عالمهما الحافل بالخوارق والأعاجيب؛ حيث تتلاشى خطوط الواقع القائم، ولكنها وفي الوقت نفسه توجد واقعاً آخر، ولذلك كان وسيظل للأسطورة والخرافة أثر باق على الأدب والفن والفكر والعلم والسياسة.

وليس من انصعب أن نكتشف أن الكثير من الأيديولوجيات والأفكار التي تزعم لنفسها أسساً مادية هي في الواقع امتداد لأساطير وخرافات شاعت في أزمنة مختلفة، وهل يمكن أن نفصل بين أيديولوجية قائمة على التفوق الجنسي والعنصري مثل النازية الهتلرية، وبين أساسها الأسطوري القائم على خرافة البطل الآري «سيجفريد»، والذي قتل التتين، وشرب من دمه، فاكسب صفة الخلود والتفوق.. والسيادة والهيمنة على الأرض.

والأمر ينطبق تماماً على الأيديولوجية الفاشية التي قامت على أساس إحياء الماضي، وبعث أشباحه الممثلة في الإمبراطورية الرومانية بكل أساطيرها، ومصادر قوتها الخرافية.

بل إن الصهيونية نفسها ارتبطت ونشأت على مجموعة من الخرافات والأساطير القديمة التي يرجع تاريخها إلى أكثر من ألفي عام، وشكلت منها مشروعاً قومياً لإقامة وطن لليهود على حساب الغير.

ومن ناحية أخرى قامت الكثير من الإبداعات الأدبية والفلسفية والفنية على أرضية الأساطير والخرافة؛ ففي عصر النهضة

الأوروبية، وسقوط النظام الكنسى القديم، ومحاولة اكتشاف العالم مرة أخرى بعيداً عن مقولات البابا ورجال الدين خرجت أسطورة دكتور «فاوست» العالم الذى يمتلئ شوقاً إلى المعرفة والاكتشاف؛ حيث أبرم عقداً مع الشيطان؛ لكى يطلعه على أسرار الحياة، ثم يقبض روحه بعد ذلك.

وغالبية أعمال شكسبير الخالدة هى فى جوهرها حوادث لأساطير، والكوميديا الإلهية وجحيم الشاعر الإيطالى دانتي، بل إننا نرى فى كثير من الإبداعات الأوروبية والفكرية المعاصرة لأندريه جيد، وجان بول سارتر، وطه حسين موضوعات تتناول بعض الأساطير والخرافات فى محاولة لتقديم مجموعة من القيم والأفكار الجديدة تأكيداً لبعض الأيديولوجيات أو نفيها لها وهجوماً عليها.

بل إنه يمكن القول إن الأيديولوجيات الاشتراكية نفسها انبعثت من عالم الأسطورة، حين كتب توماس مور الراهب الإنجليزى اليوتوبيا عن العالم المثالى الذى يتخيله عالماً يسوده العدل والإخاء، وينتفى فيه الظلم والظغيان.

لقد كانت يوتوبيا توماس مور هى المنبع الرئيسى لتدفق كل الأفكار والنظريات الاشتراكية التى خرجت بعد ذلك، وأطلق عليها الاشتراكية التوبوية، ويصف ماركس يوتوبيا توماس مور بأنها أسطورة إنسانية تتجاوز قدرة العقل والحلم النبيل، لكى يصبح تحقيقها مستحيلاً، وربما لم يدرك ماركس أن نظرياته التى حاول

فيها أن يكون واقعيًا ومنطقيًا وقابلًا للتحقيق قد تحولت هي الأخرى إلى شكل من أشكال اليوتوبيا التي يصعب تحقيقها وتطبيقها.

وسنجد هذا التداخل الواضح بين الخيال والخرافة من ناحية، وبين العلوم والتطبيق من ناحية أخرى في أعمال مفكرين وعلماء كبار من أمثال هيجل، وهرويد، وابن سينا، وابن رشد، وجابر بن حيان وغيرهم. فلقد اعتمدوا في الكثير من كتاباتهم ونظرياتهم على بعض الأساطير والخرافات الشائعة، وحاولوا تفسيرها في إطار منطقي يعتمد على العقل والديالكتيك.

ويقول الفيلسوف والمفكر والعالم البريطاني الكبير برتراند رسل في كتابه العلم والدين إن الخرافة ليست سوى تعبير عن رغبة دفينية في المعرفة تستخدم أساليبها ووسائلها الخاصة.

واليوم وفي الشهور الأخيرة التي نودع فيها القرن العشرين، الذي يعتبر قرن الاكتشافات والثورة العلمية، ونستقبل بداية الألفية الثالثة يجرى تداخل خطير وقوى بين الخرافة والفكر، ويجرى ذلك في عدة اتجاهات.

فالثورة العلمية والتكنولوجية تمضي بوتيرتها السريعة وغير المسبوقة لتغير الكثير من أوراق الماضي ومسلماته، وتجري مياه كثيرة وجديدة في نهر المعرفة تسقط معها أيديولوجيات وأفكار كانت قد اكتسبت طوال قرن أو قرنين هيمنة وسيطرة على المناخ الفكري والسياسي. ولأول مرة في التاريخ يسبق الواقع ومعطياته

الجديدة كل النظريات والأيدولوجيات السابقة، وتفتح بذلك آفاق واسعة ورحبة لاكتشافات جديدة بلا حدود تتداخل فيها الحقيقة والخيال، وتتشابك أساطير الماضى وخرافاته مع معطيات المستقبل وأعاجيبه.

فالأمير الغريب والمثير أن كثيراً من شطحات الخيال العلمى التى امتلأت بها روايات ج. اتش ويلز حول آلة الزمن وحرب الكواكب، كذلك روايات جون فيرن عن أعماق المحيطات لم تعد خرافة أو خيالاً جامحاً بعد أن نزل الإنسان على القمر، وتطورت صناعة الصواريخ والأقمار الصناعية، وأمكن الوصول إلى سرعة الصوت والاقتراب من سرعة الضوء.

ثم هناك الاستتساخ، وثورة الهندسة الوراثية، وعلوم الجينات، وثورة الاتصالات التى قدمت منجزات فاقت كل تصور خيالى جامع فى الماضى.

ولعله بعد سقوط عدد من الأفكار والأيدولوجيات والنظريات القديمة التى لم تعد قادرة على تفسير الواقع الجديد، فإن هناك محاولات كثيرة للبحث عن أسس جديدة للمعرفة والتفسير بعضها ينطلق من مفاهيم وأسس إنسانية؛ بحثاً عن العدالة وتعميق إنسانية الإنسان، وبعضها ينطلق من مفاهيم عدوانية تسعى إلى السيطرة والهيمنة، وتحت رايات عرقية أو إثنية أو دينية.

ولعل أشهر هذه النظريات الجديدة التى تنطلق من أسس عرقية وإثنية هى نظرية صراع وحروب الحضارات التى خرج علينا بها

المنظر الأمريكي صموئيل هنجتون، الذى يقسم العالم إلى مجموعات ثقافية متصارعة على أساس التاريخ، والتراث، والمقائد، والأساطير المشكلة للوجدان.

وهذه النظرية وغيرها التى ترفض وحدة التطور الحضارى والثقافى للإنسانية، وتسمى لسيادة النمط الثقافى الغربى والأمريكى تقدم فى حد ذاتها تجسيدا علميًا معاصرًا يمكن أن نسميه بأيدولوجيات الخرافة.

وهى تكرار لأنماط أيدولوجية تخرج بين الحين والآخر من أرضية عرقية أو دينية.. ولقد كانت الفاشية تعتمد على خرافة إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة، كما أن النازية كانت حلمًا مزعجًا بأسطورة تفرد الجنس الأرى. تمامًا مثلما يفكر المتطرفون القوميون والدينيون مثل جماعات الحقيقة المطلقة فى اليابان، وميليشيات ميتشجان فى الولايات المتحدة وجماعات الاسكتهد والنازيون الجدد.

ولذلك فلن نكون متجاوزين للحقيقة إذا قلنا إن مثل هذه الأفكار والأيدولوجيات هى فى الحقيقة تتويج للمعنى الحرفى لأيدولوجيا الخرافة.

د. فتحى عبد الفتاح



مدخل :

شغل موضوع العلاقة بين الأسطورة والخرافة والعلم كثيراً من الدارسين والباحثين فى مختلف العلوم الإنسانية، ووقف معظمهم موقفاً معادياً شديد العداء للخرافة، وأنماط التفكير والسلوك المرتبطة بها، مقررِينَ أنها مناقضة للعلم والعقل، ناسبين إياها للمتخلفين حضارياً الذين لا يأخذون بالعلم وأسبابه. والحقيقة أن الخرافة تشترك مع العلم - رغم تناقضهما بالطبع- فى تحقيق مجموعة من الوظائف المهمة التى يحتاجها الإنسان.

إنهما يشتركان فى تفسير الظواهر والأشياء الغامضة التى تقلق الإنسان وتحيره، وتقض مضجعه، وتقوده الشعور بالراحة والأمن

والطمأنينة؛ حتى يستطيع أن يمضى فى الحياة، وأن يكون مهياً دائماً لتقبل ما لا يستطيع فهمه أو إدراكه أو التعامل معه فى اللحظة الراهنة التى قد لا توفر له الأسباب الكافية والمقنعة للفهم. كما يشتركان أيضاً فى إيمان الإنسان أنه عن طريقهما يمكنه أن يحقق حاجاته الإنسانية الطبيعية، فإذا لم ينجح بواحد منهما، ربما نجح بالآخر، وأن يحقق النفع لنفسه، ويجلب الخير له ولأهله، بنفس القدر الذى يمنع به عن نفسه وأهله الضرر، ويدرك الخطر.

ولعل حكاية (الصياد والعفريت) فى «ألف ليلة وليلة» تصلح نموذجاً لما نذهب إليه، ومدخلاً لما نريد التأكيد عليه، على الرغم مما قد يثور هنا من سؤال عن علاقة مثل هذه الحكاية بالموضوع، فهى لم تعد تحكى، ولم يعد لها ولا لمثلها التأثير الذى كان من قبل. لكننا إذا كان قد أتيح لنا أن نرى مع أطفالنا بعضاً من أفلام الرسوم المتحركة التى تنتجها مؤسسة والت ديزنى الأمريكية للأطفال، فسنرى أن مثل هذه الحكاية يظل يُحكى، ولكن بأسلوب آخر، يتناسب مع العصر.

على أية حال تحكى الحكاية عن صياد فقير، لا يملك من حطام الدنيا شيئاً غير شبكة صيد، يستعين بما يصيده بها على أمور الحياة ومطالبها، وأنه يعيش على الكفاف. وتمضى الحكاية لتحكى أن الصياد ذهب كمادته كل يوم ليصطاد، ممتناً نفسه بصيد يكفيه، ولكن يبدو أن اليوم لم يكن من أيام سعد، فقد رمى الشبكة فى البحر ثلاث مرات، ولم ينجح فى صيد شيء ذى نفع، وفى المرة

الرابعة.. وهنا أستاذ القارئ في أن أتركه مع الجزء التالي من الحكاية، مع الحكاية نفسها.

ثم إنه سمى بالله، ورمى الشبكة في البحر، وصبر حتى استقرت وجذبها، فلم يطق جذبها وإذا بها اشتبكت في الأرض فقال : لاحول ولا قوة إلا بالله، فتعري وغطس عليها، وصار يعالج فيها إلى أن طلعت على البر، وفتحها فوجد فيها قمقمًا من نحاس ملآن، وفمه مختوم برصاص عليه طبع بخاتم سيدنا سليمان، فلما رآه الصياد فرح وقال هذا أبيعه في سوق النحاس فإنه يساوي عشرة دنانير ذهباً... ثم إنه حركه فوجده ثقيلاً... فقال: لابد أن أفتحه وأنظر ما فيه، وأدخره في الخُرج، ثم أبيعه في سوق النحاس، ثم إنه أخرج سكيناً وعالج الرصاص إلى أن فكه من القمقم، وحطه على الأرض، وهزه لينكت مافيه فلم ينزل منه شيء، ولكن خرج من ذلك القمقم دخان صعد إلى عنان السماء، ومشى على وجه الأرض، فتعجب غاية العجب. وبعد ذلك تكامل الدخان واجتمع، ثم انتفض فصار عفريتاً رأسه في السحاب ورجلاه في التراب، برأس كالقبة، وأيد كالمداري، ورجلين كالصواري، وفم كالمنارة، وأسنان كالعجارة، ومنخار كالإبريق، وعينين كالسراجين، أشعث أغبر.. فلما رأى الصياد ذلك العفريت ارتعدت فرائصه، وتشبكت أسنانه، ونشف ريقه، وعمى عن طريقه، فلما رآه العفريت قال : لا إله إلا الله سليمان نبي الله. فقال العفريت : يا نبي الله لا تقتلني، فإنني لاعدت أخالف لك قولاً ولا أعصى لك أمراً. فقال له الصياد : أيها المارد أقول سليمان نبي الله. سليمان مات من مدة

ألف وثمانمائة سنة ونحن في آخر الزمان. فما قصتك، وما حديثك، وما سبب دخولك في هذا القمقم؟ فلما سمع المارد كلام الصياد. قال : لا إله إلا الله. أبشر يا صياد. فقال الصياد : بماذا تبشرنى؟ فقال: بقتلك هذه الساعة أشر القتلات. قال الصياد: تستحق على هذه البشارة يا قيم العفريت زوال الستر عنك يا بعيد، لأى شيء تقتلنى؟ وأى شيء يوجب قتلى، وقد خلصتك من القمقم، ونجيتك من قرار البحر، وأطلعتك إلى البر؟ فقال العفريت: تمن عليّ! أى موة تموتها؟ وأى قتلة تقتلها؟ فقال الصياد : ما ذنبى حتى يكون هذا جزائى منك؟ قال العفريت : اسمع حكايتى يا صياد. قال الصياد: قل وأوجز فى الكلام فإن روحى وصلت إلى قدمى. قال: اعلم أنى من الجن المارقين، وقد عصيت سليمان بن داود وأنا صخرى الجنى، فأرسل لى وزيره «أصف بن برخيا».. فأتى بى مكرهاً وقادنى إليه وأنا ذليل على رغم أنفى وأوقفنى بين يديه.. فلما رآنى سليمان استعاذ منى، وعرض على الإيمان والدخول تحت طاعته، فأبيت.. فطلب هذا القمقم وحبسنى فيه، وختم علىّ بالرصاص، وطبعه بالاسم الأعظم، وأمر الجن فاحتملونى وألقونى فى وسط البحر، فأقمت مائة عام، وقلت فى قلبى كل من خلصنى أغنيته إلى الأبد، فمرت المائة عام، ولم يخلصنى أحد، ودخلت على مائة أخرى، فقلت : كل من خلصنى فتحت له كنوز الأرض، فلم يخلصنى أحد، فمرت علىّ أربع مائة عام أخرى، فقلت : كل من خلصنى أقضى له ثلاث حاجات، فلم يخلصنى أحد.. ففضب غضباً شديداً، وقلت فى نفسى : كل من خلصنى فى هذه الساعة

قتلته ومنيته كيف يموت، وها أنت قد خلصتني ومنيتك كيف تموت. فلما سمع الصياد كلام العفريت قال: يا الله العجب! أنا ماجئت أخلصك إلا في هذه الأيام.. ثم قال الصياد للعفريت: اعف عن قتلي يعف الله عنك، ولا تهلكني يسلط الله عليك من يهلكك. فقال: لا بد من قتلك، فتمن على، أى موة تموتها؟. فلما تحقق ذلك منه الصياد راجع العفريت، وقال: اعف عنى إكراماً لما أعتقتك. فقال العفريت: وأنا أقتلك إلا لأجل ما خلصتني. فقال له الصياد: يا شيخ العفريت، هل أصنع معك مليحاً فتقابلنى بالقبيح.. ولكن لم يكذب المثل حيث قال :

فعلنا جميلاً قابلونا بضده وهذا لعمري من فعال الفواجر
ومن يفعل المعروف مع غير أهله ييجازى كما جوزى مجير أم عامر

فلما سمع كلامه، قال : لا تطمع فلا بد من موتك. فقال الصياد: هذا جنى وأنا إنسى، وقد أعطانى الله عقلاً كاملاً، وها أنا أدبر امرأ فى هلاكه بحيلتى وعقلى وهو يدبر بمكره وخبيثه. ثم قال للعفريت: هل ضمنت على قتلى؟ قال : نعم.. فقال له: بالاسم الأعظم المنقوش على خاتم سليمان أسألك عن شئ وتصدقنى فيه؟.. فقال : نعم. ثم إن العفريت لما سمع ذكر الاسم الأعظم اضطرب واهتز، وقال له : أسأل وأوجز. فقال له : كيف كنت فى هذا القمقم، والقمقم لايسع يدك ولا رجلك، فكيف يسمعك كلك؟ فقال له العفريت : وهل أنت لاتصدق أننى كنت فيه؟ فقال الصياد: لا أصدق أبداً حتى أنظر فيه بعينى. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

(وفى ليلة ٤) قالت : بلغنى أيها الملك السعيد أن الصياد لما قال للعفريت : لا أصدقك أبداً حتى أنظر بعيني فى القمقم، فانتفض العفريت وصار دخاناً صاعداً إلى الجو، ثم اجتمع ودخل فى القمقم قليلاً قليلاً حتى استكمل الدخان داخل القمقم، وإذا بالصياد قد أسرع وأخذ السدادة الرصاص المختومة، وسد بها فم القمقم، ونادى العفريت، وقال له: تمن على أى مودة تموتها، لأرمينك فى هذا البحر، وأبنى لى هنا بيتاً، وكل من أتى هنا أمنعه أن يصطاد، وأقول له هنا عفريت وكل من أطلعته يبين له أنواع الموت ويخيره بينها، فلما سمع العفريت كلام الصياد أراد الخروج، فلم يقدر ورأى نفسه محبوساً، ورأى عليه طبع خاتم سليمان، وعلم أن الصياد سجنه فى سجن أحقر العفاريث وأقذرها وأصفرها، ثم إن الصياد ذهب بالقمقم إلى جهة البحر، فقال له العفريت: لا لا.. فقال الصياد : لا بد لا بد.. فلطف المارد كلامه.. وخضع.. وقال : ما تريد أن تصنع بى يا صياد؟ قال : ألقيك فى البحر، إن كنت أقمت فيه ألفاً وثمانمائة عام، فأنا أجعلك تمكث إلى أن تقوم الساعة. أما قلت لك أبقينى بيقيك الله، ولا تقبلنى يقتلك الله، فأبيت قولى وما أردت إلا غدرى، فألقاك الله فى يدي فغدرت بك! فقال العفريت: افتح لى حتى أحسن إليك. فقال له الصياد : تكذب يا ملعون..

(وفى ليلة ٦) قالت : بلغنى أيها الملك السعيد أن الصياد لما قال للعفريت : لو أبقيتني أبقيتك، لكن ما أردت إلا قتلى، فأنا أقتلك محبوساً فى القمقم، وألقيك فى هذا البحر، ثم صرخ

المارد، وقال : بالله عليك أيها الصياد لا تفعل وأبقنى كرماً، ولا تؤاخذنى بعملى، فإذا كنت أنا مسيئاً كن أنت محسناً .. وفى الأمثال السائرة «يامحسناً لما أساء كفى المسىء فعله» .. ولا تعمل كما عمل أمانة مع عاتكة، قال الصياد : وما شأنهما؟ فقال العفريت : ما هذا وقت حديث، وأنا فى السجن حتى تطلعنى منه، وأنا أحدثك بشأنهما. فقال الصياد : لا بد من إلقاءك فى البحر، ولا سبيل إلى إخراجك منه، فإنى كنت أستعطفك وأتضرع إليك، وأنت لاتريد إلا قتلى من غير ذنب، ولا فعلت معك سوءاً قط، ولم أفعل معك إلا خيراً لكونى أخرجتك من السجن. فلما فعلت معى ذلك علمت أنك ردىء الأصل، واعلم أننى مارميتك فى هذا البحر إلا لأجل أن أخبر كل من أطلعك بخبرك، وأحذره منك، فيرميك فيه ثانياً، فتقيم فى هذا البحر إلى آخر الزمان، حتى ترى أنواع العذاب. فقال العفريت: أطلقنى فهذا وقت المروءات، وأنا أعاهدك أنى لا أسوء أبداً، بل أنفعك بشئ يغنيك دائماً فأخذ الصياد عليه العهد، أنه إذا أطلقه لا يؤذيه أبداً، بل يعمل معه الجميل، فلما استوثق منه بالآيمان والعهود، وحلقة باسم الله الأعظم، فتح له الصياد، فتصاعد الدخان حتى خرج وتكامل، فصار عفريتاً مشوه الخلقة، ورفس القمقم فرماه فى البحر، فلما رأى الصياد أنه رمى القمقم فى البحر أيقن بالهلاك وبال فى ثيابه. وقال هذه ليست علامة خير، ثم إنه قوى قلبه، وقال : أيها العفريت.. قلل الله تعالى ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً﴾ وأنت قد عاهدتني وحلفت أنك لا تغدر بى، فإن غدرت بى يغدر بك الله».

فضحك العفريت ومشى قدماه، وقال : أيها الصياد، اتبعنى .
فمشى الصياد وراءه، وهو لم يصدق بالنجاة إلى أن خرجا من
ظاهر المدينة، وطلعا على جبل، ونزلا إلى برية متسعة، وإذا فى
وسطها بركة ماء، فوقف العفريت عليها، وأمر الصياد أن يطرح
الشبكة ويصطاد، فنظر الصياد إلى البركة، وإذا بهذا السمك ألواناً
منها الأبيض والأحمر والأزرق والأصفر، فتعجب الصياد من ذلك،
ثم إنه طرح شبكته وجذبها، فوجد فيها أربع سمكات، كل سمكة
بلون، فلما رآها الصياد فرح، فقال له العفريت: ادخل بها إلى
السلطان، وقدمها إليه، فإنه يعطيك ما يفتيك، وبالله اقبل عذرى
فإننى فى هذا الوقت لم أعرف طريقاً، وأنا فى هذا البحر مدة ألف
وثمانمائة عام، ما رأيت ظاهر الدنيا إلا فى هذه الساعة، ولا
تصطاد منها كل يوم إلا مرة واحدة، واستودعتك الله، ثم دق الأرض
بقدميه فانشقت وابتلعت، ومضى الصياد .

وتمضى الحكاية لتحكى ماذا فعل الصياد بهذا السمك العجيب،
والمفامرات والمآزق التى مرّ بها، حتى تحقق له ما وعده به
العفريت .

وأكثر ما يهمنا من هذه الحكاية، وهو سبب استشهادنا بها هو
ذلك الجزء الذى يحدث فيه الصياد نفسه بعد أن تأكد له أن
العفريت قاتله لا محال... فقال الصياد، هذا جنّى، وأنا إنسى، وقد
أعطانى الله عقلاً كاملاً، وما أنا أدبر أمراً فيه هلاكه بحيلتى
وعقلى، وهو يدبر بمكره وخبثه.. إلى آخر ما انتهى إليه الصياد

عندما نجح في السيطرة على العفريت، بإخضاعه لإرادته. لقد استخدم الصياد عقله في مقابل قوة العفريت، وذكاءه في مقابل خبث العفريت ومكره؛ لينتصر بالعقل والتفكير على القوة الخارفة التي تريد أن تعصف به، وتقضى عليه.

وإذا كنا نتصور أن مثل هذه الحكاية بما تحمله من رموز ودلالات تنتمي إلى عصر مختلف عفى عليه الزمن، وثقافة اندثرت، فنحن بذلك نخطئ خطأ كبيراً [ذلك أننا نزعم أن كثيراً من الناس في المجتمعات التي نصفها بأنها متقدمة، على الرغم مما يعيشون فيه من رغد، وما توفر لهم من إمكانيات في كل نواحي الحياة، وما يتميزون به من نظرة عقلية تحليلية، يعجزون عن فهم القوى التي تقود حياتهم، وتتحكم في مسارها، وسيئون الظن بالمستقبل، وما زالوا يتصورون أن حياتهم خاضعة لقوى خفية، وظواهر طبيعية، تهددهم وتقلقهم. منذ أيام قليلة، وأنا أحاول الانتهاء من هذا الكتاب، حدثت ظاهرة كسوف الشمس، وكانت وسائل الإعلام العالمية قد أفردت مساحات كبيرة من بثها الإعلامي للحديث عن هذه الظاهرة الكونية، وهي ظاهرة متكررة منذ خلق الله الأرض ومن عليها، أثارت رعب الإنسان منذ أزمنة سحيقة، خاصة مع تحول النهار إلى ليل فجأة، دون سابق إنذار فيما مضى. وقد أدنى عدم معرفة الإنسان قديماً بأسبابها إلى انتشار خرافات وأساطير كثيرة.

إن كلمة «كسوف» في اليونانية تعني التخلي عن شيء أو تركه، وفي اللغة العربية كَسَفَ الْقَمَرُ يَكْسِفُ كُسُوفًا، وكذلك الشمس

كَسَفَتْ، تَكْسِفٌ، ذهب ضوءها واسودَّت. وقد خشى الإنسان خشية شديدة من هذا الحدث، وتصور قديماً أن حلول الظلام على هذا النحو إيذان بنهاية العالم، وعلى ذلك أصبح لكل شعب مجموعة من المعتقدات تدور حول هذه الظاهرة. كان «الأزتک» - مثلاً - يهابون الكسوف ويخافون منه؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الشياطين والقوى الشريرة تتطلق من معاقها، وتنزل لتفتك بهم، وتحدثت الأساطير القديمة عن وحوش في الكون تلتهم الشمس. وكان الصينيون يذبحون عجولاً يقدمونها قرباناً لليتين الهائل الذي يهمن بابتلاع الشمس. وكان «هنود الشيببوا» في أمريكا يطلقون سهاماً مشتعلة تساعد الشمس على استرداد ضوءها عندما يعم الظلام.

كما أنقذ كسوف الشمس «كريستوفر كولومبس» مكتشف العالم الجديد من الموت عندما أراد السكان الأصليون دفنه حياً؛ لأنه كان يعرف موعد كسوف الشمس، فأخبرهم أن الله سيعاقبهم إذا أصابوه بمكروه، وحدث أن أظلمت الدنيا فجأة، مما أخاف السكان وجعلهم يصدقون كولومبس، وبذلك نجا من الموت.

ويضيق بنا المقام إذا حاولنا استعراض المعتقدات والممارسات الخاصة بكسوف الشمس عبر التاريخ، لدى الشعوب المختلفة، ولقد أوردنا نماذج مماثلة لها؛ لننتقل إلى بعض مافعله المعاصرون، ممن لا يشك فيما وصلوا إليه من علم، وشهرة.

ظهر مصمم الأزياء والعطور الشهير «باكو رابان» على شاشة التليفزيون الفرنسي ليخبر الفرنسيين أن عاصمتهم - عاصمة النور

- باريس سوف يخبو ضوعها؛ ذلك أنها وفقاً لنبوءة العراف الشهير «فوسترا داموس» منذ قرون تعيش أيامها الأخيرة التي ستنتهى مع الكسوف الكلى للشمس بدمارها تماماً. وكان أن ترك «السيد/ باكو رابان» باريس هرباً من أن يلقى حتفه مع باريس باعتباره مواطناً باريسياً ولحقت به العرافة الشهيرة «السيدة إليزابيث تيسييه» عرافة الرئيس الفرنسى السابق «فرانسوا ميتران». (أرجو قراءة ما قبل القوسين بشئ من التأمل) هاربة إلى تونس، لنفس السبب. وقيل إن أهل باريس أصابهم الخوف والفزع على حياتهم والحزن لدمار مدينتهم الجميلة الوشيك؛ فهرب من استطاع الهرب، وظل من لم يستطع، يبحث له عن ملجأ يرويه، وقيل أيضاً أنه عندما حدث الكسوف، كان عدد الذين صلوا تضرعاً إلى الله كي لا تدمر مدينتهم.. كان هائلاً.

وبالطبع هناك حكايات كثيرة أخرى تناقلتها وسائل الإعلام عن رد فعل الناس فى مختلف أنحاء العالم، المتقدم منه، وما يسمى بالمتخلف، لن نفيض فى إيرادها، إذ يكفى ما ذكرناه كمثال.

وبعد، هل نستطيع أن نقول - فى تفسير ما حدث من أمثال «رابان وتيسييه» وغيرهما - إن الحياة المخططة تخطيطاً دقيقاً فى المجتمعات الصناعية المعاصرة هى ذاتها التى تفرض على من يعيشونها، ويتمتثون بمنجزاتها التى لايعدها حصر، كرد فعل لهذا التخطيط والتعقيل (من عقل) اللذين يمسكان بتلابيب الإنسان حيثما ولى وجهه، أو أدار ظهره، اللجوء أو الهرب إلى الخرافة؟!

هل ما حدث يمكن اعتباره تمرّدًا من الإنسان الذي أحكم التخطيط،
وقام بتعقيل الحياة وظواهرها، على التخطيط والتعقيل؟ هل أصبح
العلم والعقل والتخطيط، وما إلى ذلك، عفاريت الإنسان المعاصر،
وغيالانه وجنّه؟

على أية حال إن الحدود التي تميز العلم عن الخرافة، من حيث
وظائفهما دقيقة جدًا، لكن ذلك لا يعنى أن يختلط هذا بتلك، ذلك
أن هناك خطوطاً فاصلة حادة بينهما. فالعلم يعنى بالبحث في
الظواهر المختلفة والعمل على إدراك علاقاتها المتعددة، الثابت
منها والمتغير، متجاوزاً تلك العلاقات الظاهرة والمباشرة، محاولاً
النفوذ إلى ماتحت السطح الظاهر، بحثاً عن الأسباب والعلل، محللاً
النتائج التي يتوصل إليها، رابطاً بينها وبين مسبباتها، والظروف
التي تحيط بها، في حين أن الخرافة تميل في العادة إلى الاهتمام
بالمظاهر المباشرة للأشياء، ومالا تفهمه منها ينسب ببساطة إلى
قوى خارج ذات الإنسان، وتصبح هذه النسبة حقيقة يصعب نقضها
أو الشك فيها، وعلى ذلك فالحقيقة في الخرافة مطلقة، بينما هي
في العلم نسبية كما نعرف. ولعل هذا يمكن أن يكون السبب في
ثبات الخرافة وجمودها، وتطور العلم، وحركته الدائمة، واكتشافاته
التي لا تنتهى.

وكما يصنع الإنسان الخرافة، والعلم، فالخرافة والعلم يصنعان
الإنسان أيضاً، ونعنى بذلك أن خصائص كل منهما تنعكس على
الإنسان الذي يعتقد فيهما، وتصوغ سلوكه ورؤاه وأساليبه في
مواجهة الواقع الذي يعيشه.

والذى لاشك فيه، أننا لانستطيع أن نزعم أن هناك الآن إنساناً يؤمن بالخرافة مطلقاً، ويعيش فى عالم تصوغه الخرافة، وتحرك مساره، وتحكم تفكيره، وتقيد سلوكه، ومن ثم فإننا عندما نحاول توضيح بعض الخطوط الفاصلة بين العلم والخرافة - وهو ما سبقنا إليه كثيرون لانزعم أننا أضفنا فى ذلك جديداً إلى ما ذكروه - لا نزعم بذلك أكثر من وضع إطار عام، لاندعى كماله، لكنه فى حدود ما هو متاح لنا هنا، يمكن أن يحقق الهدف الذى أردناه، ونرجو أن نكون قد وفقنا فى ذلك.

يبقى أن نؤكد على عدد من النقاط التى نراها مهمة، ولعلها تحتاج منا إلى تفكير وتأمل.

أولاً : إن مواقف الخطر التى تتذر بحدوث كوارث أو مجن، ومشاعر الحزن العميق، تتضمن عادة قدراً كبيراً من عدم اليقين، وعندئذ يكون الطريق ممهداً، والمجال مفتوحاً أمام الخرافة لكى يتغير موقعها فتصبح فى المقدمة.

ثانياً : إن الخرافة يمكن أن تقوم فى بعض الأحيان بدور إيجابى بأن تمنح الفرد قدراً من الشعور - الذى يكون غالباً خادعاً - بامتلاك بعض السيطرة على - أو التحكم فى - بعض تقلبات الحياة وتغيراتها، خاصة فيما يرتبط بالمرض، إذا حدث فجأة، واستعصى على العلاج وفقاً لأساليب العلاج المتوفرة فى المجتمعات الحديثة.

ثالثاً : إن البحث عن الانتظام والاطراد والتناسق والمعنى والهدف فى العالم الذى نعيش فيه، يعد خصيصة عادة لعمليات

التفكير الإنساني، كما أنه واحد من أساليبنا المهمة والبارزة لاستحداث التكيف مع هذا العالم الدائم التغير، والسريع التغير في الوقت ذاته، قياساً على ماكان عليه حال المجتمعات من قبل. ولا يعنى ذلك بالطبع أن هذا السلوك من الضروري أن يكون فعالاً دائماً ومفيداً دائماً، بل ربما كان الأمر على عكس ذلك، ومن ثم تصبح الخرافة في أحد جوانبها جزءاً من ثمن ندفعه، ونتاجاً ثانوياً يتعذر اجتنابه في محاولاتنا هذه للبحث الدقيق المستمر عن الانتظام والمعنى.

رابعاً : طالما أن الحياة تمضى بيسر دون مشاكل تستعصى على الحل، فإن الخسارة تبقى غير ملحوظة عملياً، ولكن حين تنشأ المعاناة وتستفحل المشاكل، تسير الأمور في اتجاه آخر، عندئذ يبدأ الإنسان في البحث عن منفذ مناسب، والتفكير فيما تعنيه الحياة وتجاريها المؤلمة، وظروفها القاسية.

خامساً : إن الدين قد يستغل، وهو بىء تماماً، منزّه تماماً عن ذلك، للتمهيد للخرافة والتأكيد عليها، عندما تستخدم بعض نصوصه - خطأ للأسف الشديد - لتعطيل الإرادة، وشل العقل، والتكرار للعلم.

سادساً : إن الخرافة، إذا كانت نتيجة مجرد خطأ في الإدراك الحسى أو الذاكرة، فإنه من السهل نسبياً تصحيح الخطأ، كما أنها إذا كانت نتيجة للضغوط الاجتماعية والسياسية وغيرها، فإن زوال هذه الضغوط يبدد الخرافة، ويفقدها وظيفتها، وهذا صحيح إلى

حد ما، ولكنه ليس أمراً مطّرداً أو مطلقاً. فالمثير للانتباه أن هناك أناساً يتشبثون بعناد شديد بخرافاتهم ويصرون عليها، خاصة إذا كان لهذه الخرافات إطار مرجعي يستندون إليه، بحيث يبدو الأمر كأن هذه الخرافات ذات جذور قوية في تكوينهم العقلي، وفي مكونات شخصياتهم بحيث يصعب انتزاعها منهم، وإلا فقدوا أسباب وجودهم.

المهتدين

يبقى أمر أخير، وهو أننا تناولنا الخرافة في هذه الدراسة بأسلوب أبعد ما يكون عن أن ينظر إليها باعتبارها شذوذاً في الفكر الإنساني، سواء القديم أو المعاصر، كما قد ينظر إليها البعض ممن يحلو لهم التشدق بالعلم والعقل. إننا نرى أن الخرافة أمر إنساني، لا ينفصل عن أساليبنا في الحياة والتفكير، وترتبط بمشاعرنا واستجاباتنا العامة لبيئتنا وظروف حياتنا. لكنني قبل كل ذلك، وبعده.. أرجو ألا يفهم من ذلك أنني في صف الخرافة أو التفكير الخرافي، أو أنني منحاز للخرافة، أذافع عنها، وعمن يعدونها أساساً لسلوكهم أو تفكيرهم، أو أسلوبهم في الحياة؛ ذلك أن هناك فرقاً كبيراً بين أن تكون الخرافة أسلوباً في التفكير وممارسة الحياة، وتعبيراً عن جمود فكري، وركود عقلي واجتماعي لا يستطيع إنسان المساس به أو نقده وتغييره، وبينها حين تكون تعبيراً عن جانب إنساني، ومهرب مشروع، يتجه إليه الإنسان تخفيفاً من الضغوط النفسية والاجتماعية الهائلة في مجتمعاتنا المعاصرة.. وأحسبني باعتباري مازلت إنساناً عاقلاً، لا يمكن أن أكون في صف الجمود والركود، أو القهر أو إشاعة المحز واليأس.

خاصة فى بلد كبلدنا تحتاج أكثر ماتحتاج إلى مايمكن أن تحققه
معجزات العقل والعلم لا معجزات الخرافة التى لم تحدث، ولن
تحدث.

أحمد على مرسى



حول الخرافة :

احتاج الإنسان إلى وقت طويل جداً، وتغييرات اقتصادية واجتماعية وثقافية كثيرة، تراكمت عبر السنين، وتعددت مع تعدد التجارب والخبرات الإنسانية وتعقدتها وتنوعها، حتى أصبح في مقدوره أن يتوصل إلى التفكير بشكل علمي منهجي منظم، في العالم الصغير الذي يعيش فيه، والكون الأكبر الذي ينتمى إليه، والذي لم يكن في البداية قادراً على فهمه، وسبر أغواره، أو إدراك ظواهره اللامتناهية، كما وكيفاً.

ولقد عرف الإنسان الأسطورة والتفكير الأسطوري عندما بدأ التفكير في العالم المحيط به، محاولاً فهمه وفقاً لما كان متاحاً له في تلك الفترة الموهلة في القدم، من خلال تجاربه المحدودة،

ورغباته وأحلامه. وظلت الأسطورة تحتل مكانة متميزة فى عالم الإنسان القديم، إذ كانت تمثل له دينه وعلمه، وعن طريقها حاول تفسير وجوده، ووجود الكائنات والظواهر الأخرى التى تحيط به يتأثر بها، ويؤثر فيها، إيجاباً وسلباً، وبها نسب الظواهر التى لم يفهمها، ولم يستطع السيطرة عليها، إلى قوى خارج ذاته، وقسمها إلى خيرة تفيده، وتعمل لصالحه، وأخرى شريرة تضره، وتترىص به، وتقف ضده، فاتجه إليها طالباً رضاها، أو متقياً غضبها وسخطها، عن طريق تقديم الهدايا والقرايين، وإقامة الطقوس التى تخيل أنه يقيم من خلالها صلة بها أو علاقة معها، وبذلك يستطيع توجيهها لما ينفعه، وإبعادها عما يضره. والحقيقة أن الأسطورة، رغم ما يحيط بالكلمة فى لغتنا العربية من استهانة بدلالاتها، وتحقير من شأنها باعتبارها «كلاماً فارغاً»، تقدم تصوراً متكاملًا للعالم وظواهره، والكون ومكوناته، من وجهة نظر أصحابها وصانعيها. أما الخرافة فإنها فى اعتقادنا بقايا أسطورية ظلت موجودة فى وعى الإنسان ولا وعيه أيضاً، وذلك عندما تحللت الأسطورة، وفقدت وظيفتها، وهبطت من مكانها، لتصبح ممارسات ومعتقدات صغيرة - إذ لم تعد ديناً ولا علماً - تظهر من حين إلى آخر فى فكر الإنسان وسلوكه، حتى الآن، ماثلة فى الحوادث التى تحكيها الجدات والأمهات، وفى بقايا سجلتها كثير من الكتب التى ينظر إليها بتقدير كبير، واحترام هائل باعتبارها تحكى عن - أو تفسر - أشياء مقدسة، ويستشهد بها جاء بها كثيرون فى خطابهم الوعظي، ويخيلون للناس أن ما يذكرونه إنما هو علم، ويحيطون ذلك بهالة

القداسة الدينية، التي تجعل الطريق سهلاً ميسراً إلى عقول
س.

ويرد في كتاب (قصص الأنبياء) على سبيل المثال، ما يلي..
، إطار الحديث عن خلق الأرض وكيفيتها :



في بدء خلق الأرض وكيفيتها :

روت الرواة بالفاظ مختلفة ومعان متفقة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والأرض، ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماءً، ثم نظر إلى الماء فارتفع منه زيد ودخان ويخار، وأرعد من خشية الله، فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة، وخلق الله من ذلك الدخان السماء، وخلق من ذلك الزيد الأرض. فأول ما ظهر من الأرض على وجه الماء مكة فدحا الله الأرض من تحتها.

ولما خلق الله الأرض كانت طبقاً واحداً، ففتقها وصيرها سبعاً، ثم بعث الله من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخل

قال كعب الأحبار : فو الذى نفسى بيده إنه لينظر إليها وتتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أول ما خلق الله الأرض عجت، وقالت يارب تجعل على بنى آدم يعملون على الخطايا ويلقون الخبائث، فاضطربت فأرساها الله تعالى بالجبال فأقرها. وخلق الله تعالى جبلاً عظيماً من زبرجدة خضراء خضرة السماء يقال له جبل قاف فأحاط بها كلها.

قال وهب (وهب بن منبه) : إن ذى القرنين أتى على جبل قاف، فرأى حوله جبلاً صفاراً فقال له من أنت؟ قال أنا قاف. قال فأخبرنى ما هذه الجبال التى حولك، فقال هى عروقى، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضاً أمرنى فحركت عرقاً من عروقى فتزلزل الأرض المتصلة به. وقال إن ورائى أرضاً لمسيرة خمسمائة عام من جبال الثلج يحطم بعضها بعضاً، ومن وراء ذلك جبال من البرد مثلها، لولا ذلك الثلج والبرد لاحتزقت الدنيا من حرّ جهنم.

على أية حال، فإن الأمر لم يقف عند حدّ الحكى، سواء جاء فى الحواديت أو جاء فى بعض الكتب التى استشهدنا بواحد منها كمثال؛ إذ إن هناك المئات من هذه الكتب، يرد بها مثل هذا وأكثر، بل ظلت معتقدات وممارسات خرافية كثيرة تؤثر فى فكر الإنسان وسلوكه فى أكثر المجتمعات أخذاً بالعلم وتطبيقاته، ولهذا أسبابه التى قد يتناقض بعضها مع العلم والإيمان به، والتى لا يتناقض بعضها الآخر معه، ومع بنيته الفكرية والسلوكية، بل قد تكون بعضاً من نتائج الثانوية أيضاً.

ويبدو لنا بوضوح من هذا النموذج الذى ذكرناه، وكثير غيره مما هو موجود لدى كل الشعوب، وفى كل الثقافات، أن كثرة كثيرة من النظرات والأفكار والنظريات والآراء القديمة عن الكون وظواهره ومكوناته اختلفت إلى التجربة الواقعية، وأحاطت بها الأساطير والخرافات على النحو الذى نلاحظه عند دراستنا لتلك المراحل القديمة التى عاشها الإنسان، ولم يكن قادراً رغم تطور معرفته بنفسه وبالعالم من حوله، وتقدمه فى محاولات السيطرة عليه، وإمعان التفكير فى جوهره وماهيته، على أن يتوصل إلى رأى واحد متفق عليه عن أصل الكون ويفسر به نظامه واتساقه. وربما التمسنا العذر لذلك الجذ البعيد، حين نرى أنه على الرغم من التقدم العلمى الهائل الذى يشهده عصرنا الحالى، لم يتوصل العلماء المحدثون إلى رأى قاطع حاسم، أو نظرية واحدة، يُطمأن إليها، ولا تقبل الشك أو النقص فى هذا الموضوع. وربما تنشأ هنا مفارقة نأمل أن نستطيع أن نجد لها حلاً، ذلك أن ما نعهده اليوم خرافات أو بقايا أساطير قديمة، كان يعد - كما ذكرنا من قبل - علماً يوماً ما. وهنا قد يثور سؤال، ما الذى يمنع أن يأتى بعدنا آخرون، يتوصلون إلى شىء آخر يسمونه علماً، ومن ثم يصبح مانراه نحن الآن، وما نشأنا على احترامه، باعتباره علماً، خرافات وبقايا أساطير بالنسبة لهم؟

إن كثيراً من الأمور التى تشغلنا فيما يتعلق بالعالم الذى نعيش فيه، والكون الذى يحيط بنا، وما يحويه من أسرار، وما ينطوى عليه من قوانين تنظم حركته، وتضبط ظواهره، لاتزال فى الحقيقة تفتقر

تحت الأرضين السبع، فوضعها على عاتقه، إحدى يديه فى المشرق والأخرى فى المغرب، باسطتين قابضتين على قرار الأرض السبع حتى ضبطها، فلم يكن لقدميه موضع قرار. فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة، وجعل قرار قدمى الملك على سنامه فلم تستقر قدماه. فأحدر الله ياقوته خضراء من أعلى درجة الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة عام، فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه. وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض، وهى كالحسكة تحت العرش، ومنخر ذلك الثور فى البحر، فهو يتنفس كل يوم نفساً، فإذا تنفس مد البحر، وإذا أراد نفسه جزر.

ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار، فخلق الله تعالى صخرة خضراء، غلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين، فاستقرت قوائم الثور عليها فلم يكن للصخرة مستقر، فخلق الله تعالى نوناً وهو الحوت العظيم : اسمه لوتيا، وكنيته بلهوت، ولقبه بهموت، فوضع الصخرة على ظهره، وسائر جسده خال. قال والحوت على البحر، والبحر على متن الريح، والريح على القدرة.

قال كعب الأحبار: إن إبليس تغفل إلى الحوت الذى على ظهره، فوسوس إليه، وقال له أتدرى ما على ظهرك يالوتيا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها لو نفضتها أو ألقيتها عن ظهرك أجمع لكان ذلك أربع لك. قال فهم لوتيا أن يفعل ذلك، فبعث الله تعالى إليه دابة، فدخلت فى منخرة، فوصلت إلى دماغه، فعمج الحوت إلى الله تعالى منها، فأذن الله تعالى لها فخرجت.

إلى قول فصل يستريح الإنسان إليه. لكن رغم ذلك، فالذى لا شك فيه أن التقدم الهائل السريع الذى يكاد يحدث على مدار الساعة فى شتى مجالات العلم، وهذا الاهتمام المتزايد باكتشاف الكون، ومعرفة أبعاده، واكتناه خفاياه وأسراره، سوف يؤدى فى النهاية إلى حل كثير من المشكلات التى لا تزال تؤرق الإنسان، وتشغل باله وعقله، وإضاعة الطريق أمامه لاكتشاف ما غمض عليه، ومالم يفهمه. وربما - حينئذ - سيزول قلقه على وجوده، وتتبدد حيرته التى عانى منها زمناً طويلاً، ولعله مازال يعانى منها إلى الآن، ويتحدد الخط الفاصل بين الخرافة والعلم، ويصبح أكثر دقة، ذلك أن هذا الخط ليس واضحاً تماماً - فى اعتقادنا - إلى الآن، ومن ثم فإتفه من المؤلف أن نرى علماء على درجة عالية من التخصص العلمى يعتقدون بشكل أو آخر فى الخرافة، بل إنهم لا يجدون حرجاً أو تناقضاً بين إيمانهم بالعلم وتخصصهم الدقيق فيه وإيمانهم وتصديقهم وممارستهم لبعض أشكال الممارسات الخرافية، ولعل أسهلها وأبسطها وأكثرها شيوعاً هو قراءة باب البخت أو الحظ أو الطالع الذى تنشره كل الصحف والمجلات فى العالم كله.. هل هو اعتقاد أم مجرد تسلية وترفيه؟.. ربما يساعدنا فى الإجابة على هذا السؤال البسيط ظاهرياً أن نذكر أن كثيراً مما حققه العلم - باعتباره منظومة فكرية سلوكية متكاملة - فى ميدان التعرف على الكون، والكشف عن خباياه وأسراره ومكوناته ممّا نشهده الآن من مركبات وأقمار فضائية، مدين للأساطير، وأن له أسماء معروفة فى فكر الإنسان وسلوكه وأحلامه، عكسه فى تعبيراته الأدبية، وممارسة

التنجيم الذى كان يتطلب معرفة واسعة بمواضع الأبراج، وحركة
الأفلاك، وحقيقة النجوم وتأثيرها وعلاقتها بما يحدث للإنسان.
لقد أدى هذا إلى خلط بين علم الفلك والتنجيم وتداخل بين
مجاليهما، حتى إن بعضاً من كبار الفلكيين كانوا منجمين أصلاً،
وكانت محاولاتهم إتقان التنبؤ بالطالع، وإحكام نتائجه، وضبطه،
سبباً أساسياً من الأسباب التى أسهمت فى إيجاد علم الفلك
وتقدمه.

لقد اختلطت الممارسات السحرية مع الممارسات العلمية،
وتداخلت، زمناً طويلاً حتى أصبح التمييز بين هذه وتلك صعباً،
نتيجة لما سبق أن أشرنا إليه من عدم وجود حدود فاصلة أو
واضحة بين الخرافة والعلم. فالسحرة - مثلاً - كانوا يحاولون
التعرف على الطبيعة وموادها ومكوناتها، ويستخدمون بعض هذه
المواد فى عملهم، سواء فى علاج بعض الأمراض، أو كمكونات
للقرابين، أو عناصر فى أدائهم الطقوس الدينية؛ مما يسر لهم
نتيجة الممارسة والتجربة، اكتشاف أسرارها وخصائصها، مما مهد
بعد ذلك لاكتشاف أو تبلور علوم عظيمة الأهمية فى حياة الإنسان،
لا يمكن إنكارها أو الاستغناء عن نتائجها التى أصبحت مؤثرة فى
كل جوانب حياتنا المعاصرة خاصة. ولعل أبرز مثال على ذلك هو
علم الكيمياء، إلى جانب علم الفلك، وغيرهما.

ولكن على الرغم من أن هذين العلمين يمدان من العلوم ذات
التاريخ، وأن كلا منهما قد استقل - إلى حد ما - عن الخرافة

والسحر، فى وقت مبكر نسبياً، إلا أن معارك طاحنة دارت رحاها بين العلم والخرافة أو السحر فى أوروبا فى بدايات العصر الحديث، حمل لواءها رجال الدين الذين وقفوا بشراسة وعنف فى وجه السحر والسحرة، كما رفضوا بإصرار العلم والعلماء.

والحقيقة أن الكنيسة فى ذلك الوقت لم تفرق بين العلماء والسحرة، ولابيين العلم والسحر، من حيث النتائج التى يتوصل إليها كل منهما، ومن ناحية مايعنيه كل منهما بالنسبة للمعتقد الدينى.

لقد رأوا أن السحرة تتلبسهم أرواح شريرة، ولما كانت لمواجهة القوى الشريرة والقضاء عليها واجب على كل مسيحى من رعايا الكنيسة، كان من الضرورى أيضاً القضاء على هؤلاء الذين يحملون هذه الأرواح الشريرة فى قلوبهم، ويفصحون عن ذلك بأفعالهم التى تتنافى مع صحيح الدين وفقاً لما حددته الكنيسة. أما العلماء فكان موقفهم أكثر صعوبة، ذلك أنهم كانوا يقولون أشياء تخالف ما جاء فى تفسير الكنيسة للدين، ويجهرون بأراء وأفكار مضادة للأفكار التى تروج لها الكنيسة، وعلى ذلك، فإنهم يستحقون الطرد والنفى والعقاب؛ حتى لا يفسدوا الدين، وتفقد الكنيسة سلطتها وسيطرتها على رعاياها. هذا بالإضافة إلى أن بعضاً منهم اتهموا بأنهم يمارسون السحر، وأنهم سحرة، ومن ثم فقد حلت بهم الأرواح الشريرة نفسها التى تحل بالسحرة وتسيطر على أرواحهم، وعلى ذلك يجب أن يلقوا المصير نفسه الذى يلقاه السحرة، قتلاً، أو حرقاً، بعد أن يكونوا قد عذبوا بالطبع، فى محاولات لإخراجهم من

هرطقتهم التى سيطرت عليهم، وإعادتهم إلى سبيل الإيمان الذى تمثله الكنيسة، وتقوم على رعايته، ودعوة المؤمنين الطيبين إلى السير فيه، وحمايتهم من أمثال أولئك وهؤلاء. ولحسن الحظ أن هذا الفكر الذى تبناه رجال الدين، وما استتبعه من اضطهاد للعلم والعلماء لم يستمر، ذلك أن إصرار العلماء على مواقفهم، بالإضافة إلى التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية - التى زادت من وعى الإنسان بنفسه واتجاهه إلى تعقيل الحياة، والسعى نحو سيطرته على مصيره، وصنع حياته، وصياغة عالمه الذى يعيش فيه بما يحقق له تلبية حاجاته الأساسية - أثرت تأثيراً كبيراً على توسيع مداركه، وتنامى معارفه، وتزايد قوته وقدرته على السيطرة على الطبيعة، وحماية حياته، وصونها، مما قد يعصف بها، سواء كان ذلك من فعل طبيعة عاتية، أو من صنع قوى اجتماعية قاهرة. وبالطبع لم يكن ذلك ممكناً فى غيبة العلم أو التكر للعقل، من ناحية، أو بعيداً عن تلك التغيرات التى جعلت الإنسان يعيد اكتشاف ذاته، والكون من حوله، على نحو جديد مختلف، يؤكد على حرية، ومسئوليته عن بناء الحياة، والحفاظ عليها، منحياً جانباً كثيراً من الأفكار والممارسات التى كانت تحد من قدراته، وتشل إرادته وحركته، وتزيف وعيه، وتجعله مجرد مستقبل سلبي لما يفرض عليه، سواء كان هذا الفرض حتماً طبيعياً، أو بتأثير قوى خارقة خارج ذاته، أو سلطة دينية أو سياسية أو اجتماعية تقهره، وتفسر له ماغض عليه وفقاً لصالحها وأهوائها من ناحية أخرى.

فى كل الأحوال، وبالنظر إلى السحر وغيره من الخوافات، فإن
 منهج الذين يعتقدون فيه ويؤمنون به يعتبر منهجاً فكرياً، كما أطلق
 عليه (إيفانز برتشارد). ولقد قام (تايلور)، على سبيل المثال،
 بتحليل الاعتقاد فى الأشخاص والكائنات الروحانية، وفحص طبيعة
 المعتقدات المنتشرة والمتعلقة بهذا الموضوع فيما أطلق عليه
 مصطلح «الأنيمية». وبالرجوع إلى أصل هذا الاعتقاد ذكر «تايلور»
 أن الإنسان القديم كان يفكر فى تجاربه فى أثناء نومه، وأحلامه،
 ورؤاه، وغيبوبته، ومرضه، وحاول أن يضفى عليها معنى بافتراض
 أن لها روحاً أو أرواحاً تشكل الجانب الآخر المكمل للجسد، وتطور
 المصطلح ليشمل عالم الكائنات الحية وعالم الجماد أيضاً. أما
 السحر، فقد اعتبره (تايلور) نتيجة للخلط، عند الإنسان القديم،
 بين التناظر والسببية. ويمكن أن يكتفى بذكر مثل واحد للتوضيح.
 فبين قبائل الجا فى غانا، كان من الشائع أن يعطى الزوج، عند
 ذهابه فى رحلة، زوجته أو زوجاته بعضاً من دواء؛ كان المكون
 الرئيسى لهذا الدواء مشتق من نبات، ينفلق بقوة عند لمسه. ولا
 شك أن التناظر المتمثل فى ذلك النوع من الحماية ضد الزنا
 واضح تماماً. وقد تعامل (تايلور) مع ذلك النوع من التفكير كخطأ
 منطقى واعتبره وهمًا. وفى الوقت نفسه، كان أول من أثار التساؤل
 عن مدى احتمالية صحة مثل تلك الأوهام، وكانت التفسيرات التى
 اقترحها هى أفضل المتاحة. كانت تلك التفسيرات باختصار،
 كالتالى: إن السحر، فى الأغلب، هو جزء من أنشطة الحياة اليومية،
 ويكتسب أهميته عندما يؤدى إلى النتائج المرغوبة. إن السحر

يُفترض أن يأتي بأحداث طبيعية، تحدث في كل الأحوال (مثال: صنع المطر)؛ ويرجع الفضل في المقابل إما إلى أداء غير مكتمل للطقوس والتعاويذ الضرورية، أو إلى وجود طرف مُعاد سحره أقوى. في كل الأحوال، فإن ما يظن أنه فشل ليس واضحاً دائماً. ويكفى أن يتحقق بعض النجاح نتيجة للممارسات التي تعتمد على السحر، لكي يتم دعم المعتقد. وقد أوضح (تايلور) التأثيرات النفسية للسحر، التي هي في الأغلب حقيقية على نحو ما. وذكر «إن النبوءة تهدف إلى تأكيد نفسها، حيث إن الساحر، بما يؤكد في عقل من يلجأ إليه من أن الاعتقاد في الأعمال المهلكة قد تمت ممارستها ضده، يمكن أن يقضى عليه كالقضاء عليه بسلاح حديدى». وبالنظر إلى المثل الذي ضربناه في البداية، فإن الزوج يهتم بالتأكد من أن زوجته، وربما أيضاً معشوقاته المقربات، يعرفن أن الدواء السحري الوقائي قد تم توظيفه ليلعب دور الرادع.

لقد حول (فريزر) طرق التفكير التي وصفها تايلور إلى «قوانين»، مدعياً أن الناس القدماء كانوا يعتقدون فيها ويطبقونها ضمناً، بهذه الطريقة، قدم فريزر فرقاً تصنيفياً بين طريقة التفكير عند القدماء، وعند المتحضرين المحدثين، والذي لا يبدو أن (تايلور) كان يقصده. إن كليهما قد أول الخرافة - دون شك - على أنها أخطاء في التفكير المنطقي، وذهبا إلى أن الناس القدماء في الأساس، أشخاص عقلانيون ينشدون الحقيقة، لكنهم يفشلون في العثور عليها، متأثرين بالمنطق الذي سيطر عليهم آنذاك.

هذا الافتراض الأساسى لـ «المدرسة الإنجليزية»، كما كانت تسمى آنذاك، ظهر ليتحداه تلميذ بارز لعالم الاجتماع الفرنسى (دور كايم)، هو (ليفى برول) فى كتابه الشهير «كيف يفكر البدائيون»، الذى هو ترجمة متواضعة للعنوان الفرنسى «الوظائف العقلية عند المجتمعات الدنيا». وقد عاتب (ليفى برول) كلا من (تايلور) و(فريزر) على حقيقة أنهم سلموا بأن التوظيف العقلى لدى الناس القدماء كان متطابقاً مع التوظيف العقلى لدينا، وبذلك حالوا دون التفكير فى نظريات بديلة.

وقد أوعزت له هذه النتيجة بفرق نوعى؛ إذ ذهب إلى أنه إذا كان التفكير المتحضر عقلانياً ومنطقياً وعلمياً، فإن التفكير القديم عاطفى، وشعرى، وخرافى. وأرفق (ليفى برول) زوجاً من المسميات لطرق التفكير؛ هما : «منطقى»، و«منطقى أولى» على التوالى. وأدت تلك المسميات إلى سلسلة لا تنتهى من سوء الفهم لموقفه، حيث فُسر مصطلح «منطقى أولى»، بشكل واسع على أن المقصود به «غير منطقى»، أو «غيبى»، أو «أدنى إلى الفطرة». وقد أتى هذا النوع من سوء الفهم من غموض لاشك فيه فى كتاباته، رغم أنه لم يكن يقصد ذلك بكل تأكيد. وسوف توضح الفقرتان التاليتان ذلك :

«إن البيئة الاجتماعية، حيث يعيش هؤلاء الناس (يقصد البدائيين أو القدماء)، مختلفة عن بيئتنا، وعلى ذلك، فإن العالم الخارجى الذى يدركونه يختلف هو الآخر عن العالم الذى ندركه

نحن. لاشك أنهم يملكون العقول... ونفس المكونات المخية. لكن يجب الأخذ فى الاعتبار ماتسهم به الثقافة السائدة فى صياغة كل مفهوم من مفاهيمهم. وأياً كان الشيء الذى يواجهونه، فإن له مواصفات صوفية ملحقة به، غير منفصلة عنه، وعقل الإنسان القديم لم يكن قاصراً فى الواقع عند إدراكه لذلك».

بهذه الطريقة، فإن ضروريات التفكير المنطقى يتم اكتشافها، وبناءؤها، ودعمها، فى كل عقل فردى من خلال الضغط المتواصل عليه من البيئة الاجتماعية، والثقافة السائدة، وعن طريق أساليب اللغة نفسها. إن هذا كله يكون تراثاً يصوغ كلاً منا، ولا يستطيع أحد مجرد التفكير فى رفضه..

وهناك كثير من العوامل التى تتحكم فى العقلية المنطقية الأولية. لاشك أنها أيضاً تتقل اجتماعياً، عن طريق وسائط من اللغة والمفاهيم الضرورية للتعبير عن أصحابها. لكن هذه المفاهيم تختلف عن مفاهيمنا، وبالتالي فإن العمليات العقلية أيضاً تختلف.

ما كان يقوله (ليفى برول) هو أن كلا من الإنسان القديم والإنسان الحديث لديهما نفس الصفات البيولوجية، لكن، ونتيجة للبيئة الاجتماعية والثقافة السائدة، فإن نظرتهم للعالم تختلف بشكل كبير. واحد من أهم إسهامات (ليفى برول) هو تجنب الاضطراب الضمنى فى حسابات (تايلور) و(فريزر) بين طريقة التفكير ومضمونها؛ فقد كتبوا، وكأنهم يمتلكون نافذة خاصة يطلون منها على عقل الإنسان القديم، ويلاحظونه أثناء عمله، بينما كانوا،

فى الواقع، يتعاملون فقط مع طبيعة محتواه، التى يتم التحقق منها غالباً اعتماداً على مصادر مشكوك فيها. بالإضافة إلى هذا، وبالرغم من أن (ليفى برول) لم يركز كثيراً على ذلك، إلا أنه عرف بشكل مؤكد أن مايسميه أساليب التفكير المنطقية الأولية تفرض نفسها بشكل ملح، جنباً إلى جنب مع أساليب التفكير المنطقى فى المجتمعات المتحضرة.

وعندما بدأ علماء الأنثروبولوجيا فى معايشة الناس، واكتساب لغتهم ومشاركتهم أنشطتهم اليومية، بدأ جلياً بشكل متنام، أن التناقض الحاد المزعوم بين أسلوبهم فى التفكير وأسلوبنا هو - على الأقل بشكل جزئى - وهم اختلقه هؤلاء الذين نظروا إليهم عن بُعد. ولعل هذا ما جعل (إيفانز بريتشارد) يحكى عن مدى الغرابة التى أحس بها فى البداية، أمام التفسيرات الشيقة لسوء الحظ التى طرحها (الازاندى)، بينما تلك التفسيرات لها، من وجهة نظرنا المعاصرة، أسباب طبيعية واضحة. ثم ذكر: «لكن بعد فترة تعلمت لغتهم وطريقة تفكيرهم وممارساتهم المتعلقة بالسحر، وذلك من خلال مواقف كانت رؤيتهم فيها واضحة، ومفهومهم عنه واضحاً أيضاً».

وقد ذكر أن اللغة غير مألوفة، إلا أنها تبدو كأنها ليست غريبة تماماً علينا، ربما لسببين أساسيين؛ الأول : هو أن الكثير من أفكارنا فى مجالات معينة، بخاصة الدينية منها، والشعرية، والفنية يدور فى خطوط، إلى حد ما، متشابهة. الثانى : أن العقل، من

وجهة النظر المنطقية، هو كل مانمر به جميعاً فى طفولتنا وصباانا خلال مرحلة النمو التى تتميز بملامح كثيرة من السحر والروحانية. عندما نقول ذلك، يجب الحذر من خطورة الاشتباه فى أن يخلد أحدهم الأسطورة السائدة التى تساوى بين الإنسان البالغ القديم (البدائى) والطفل المتحضر. على العكس من ذلك، الصحيح هو أن الأطفال فى كل المجتمعات، مهما كان مستوى التكنولوجيا بها، يتشاركون أو يتشابهون فى مراحل معينة من عمرهم. وهناك، الآن، اتفاق كبير على الدليل الذى يعضد وجهة النظر تلك، ويقوم أساساً على الدراسات المهمة التى قام بها عالم النفس السويسرى (جان بياجيه). فعلى مدى نصف قرن تقريباً، أعد ومعه عدد كبير من تلاميذه وتابعيه رسماً بيانياً لنمو التفكير عند الطفل، أوضح أنه تقريباً حتى سن العاشرة أو الحادية عشرة، تختلف مفاهيم الأطفال حول مجالات أساسية مثل : الفضاء، والمادة، والوقت، والسببية، بشكل جذرى عن مفاهيم البالغين العاديين حول الموضوعات نفسها وقد اكتشف ذلك من خلال عدد كبير من ذوى الذكاء المرتفع، وبعض التجارب، التى غالباً ماتتسم بالبساطة فى الأساس. على سبيل المثال، ولكى نأخذ مثلاً معروفاً، فإن البالغين يسلمون بأنه إذا كان هناك جزء من شكل مايمكن أن يتم تشكيله أو صياغته على نحو آخر، فإن حجمه لا يجب أن يتغير لذلك السبب. ومن أجل التأكيد مما إذا كان ذلك النوع من التفكير مفهوماً لدى الأطفال الصغار أم لا، قدم (بياجيه) لهؤلاء الأطفال كرتين من الصلصال، متساويتين فى الحجم. ثم قام بتشكيل إحداها على

هيئة سجع، عندئذ، اعتقد الأطفال حتى حوالى سن السابعة أو الثامنة أن حجم الصلصال الذى تم تشكيله على هيئة سجع أصبح أصغر.

وقد اهتم (بياجيه)، اهتماماً كبيراً، بالمظاهر السحرية والروحانية فى تفكير الأطفال، معتمداً على النتائج التى تحققت فى الأبحاث السابقة، والتى انتهت إلى أن الطفل الصغير يعجز عن الفصل بشكل واضح بين نفسه وبين العالم الخارجى، فضلاً عن أن الطفل فى مراحله الأولى لا يستطيع التفريق بين الظواهر الجسمانية والنفسية. وبالتالي، فإن الطفل عندما يركز اهتماماته - بالكامل - حول ذاته، لا يعنى ذلك بالطبع أنه «أنانى»، بل يعنى أنه عاجز عن مجرد إدراك منظور آخر غير منظوره. إن أفكار الطفل ومشاعره وأمنيته تختلط بما يكن تسميته بالواقع الخارجى، الذى يحيط به. وهكذا، فإن العمليات والأمور النفسية يتم التعبير عنها بشكل موضوعى. وتبدو الأحلام وكأنها تأتى من الخارج، وترتبط الكلمات، بشكل وثيق، بالأشياء التى تعبر عنها، والكلام يُحس كأنه طريقة للتأثير فى الأشياء. إن العالم المادى بالنسبة للطفل لا يمكن تقسيمه بشكل حاد إلى جسدى وروحانى، بل، بالعكس، فإن هذا العالم يعتبر كأنما يمتلك الحياة، والوعى، والإرادة.

إن عالم الطفل الصغير جداً يمكن أن يحوى أجزاء من عالم سحرى مفاير، فإذا رآه الطفل لن يجد شيئاً غريباً فى الغول أو

العصفور الذى يتكلم أو فى نصف الإنسان الذى يسلك سلوك الإنسان الكامل الخلقة كما فى حدوده «النص نصيص» مثلاً.

أما بالنسبة للبالغ، فقد يبدو الأمر غريباً جداً، ومع ذلك، يصبح أحياناً مثلاً مألوفاً تماماً؛ ذلك أننا مررنا جميعاً بتلك المرحلة بالرغم من أن غالبيتنا لا يتذكر ذلك إلا فيما ندر.

وربما يكمن هنا سر استمرارية انجذاب الكبار إلى مثل تلك الأعمال الفنية. ومن المهم بكل تأكيد، أن يبقى الكلاب والفنانون المبدعون أكثر من غيرهم على صلة وثيقة مع ذلك النوع المبكر والبكر وغير المؤلف من الإدراك.

وقد طرح «بياجيه» لكى يدعم تحليلاته، بعد ذلك، فكرة أنه فى ظل مواقف وظروف معينة فى حياة الشخص البالغ، حيث تقعد الحواجز بين هذا الشخص وبيئته المحيطة حولها بشكل مؤقت، عندئذ، يكون الارتداد إلى المعتقدات والممارسات السحرية فى فترة الطفولة شيئاً متوقعاً. إذ إنه، وسط تلك الظروف يبدأ فى الظهور، قلق واهتمام بالغ ومقصود على رغبة بعينها. ويربط (بياجيه)، عندئذ، بين عدد من الأمثلة، مثل المثل الخاص بالمحاضر العصبى الذى يشعر بأنه مضطر أن يسير فى إطار رقعة محددة، كى تتجح محاضرتة، أو الشخص، الذى ينتظر بقلع الصبر زوجته، حتى تنهى مكالمة تليفونية مع أمها أو صديقة لها قبل الخروج من البيت تلبية لدعوة عشاء، والذى أخذ يدخن سيجارته غيظاً كى يضطرها أن تنهى المكالمة بشكل أسرع.

ولعلنا مطالبون هنا أن نشير إلى أن (بياجيه) لم يكن مهتماً في الحقيقة بما كان يمكن أن يكون موجوداً من مخزون ثرى من الغيبيات الماثورة في المجتمع، والتي - كانت ومازالت - تؤثر - إلى حد ما - على سلوك الأطفال وعاداتهم؛ ذلك أن كثيراً من هذه المعتقدات - هي في حقيقتها - جزء من عالم الطفولة.

وقد ميز (بياجيه) بين أربعة أنواع من الأنيمية (أى نسبة قوى مدركة للطبيعة)، هي : أولاً: أن جميع الأشياء واعية ومدركة، أو إن هناك، على الأقل، احتمالاً لذلك. ثانياً: أن الأشياء التى يمكن أن تتحرك، واعية ومدركة. ثالثاً: أن الأشياء التى يمكن أن تتحرك من تلقاء نفسها هي - فى حقيقتها - مدركة وواعية. رابعاً: أن الوعى شىء قاصر على الحيوانات. وقد وضع (بياجيه) الأطفال، حتى سن السادسة أو السابعة من عمرهم فى المرحلة الأولى، بينما رأى أنهم يمكن أن يلحقوا بالمرحلة الرابعة، على نحو تقريبي، فى سن الحادية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرهم. على أية حال، هناك فروق فردية لاشك فيها، لكن دراسة موضوع نسبة قوى عارفة أو مدركة للطبيعة لدى الأطفال، فى بقاع مختلفة من العالم كشفت عن أن النتائج تكاد تكون متطابقة بشكل عام، وأن الأطفال يمرون بمراحل من التفكير السحري الذى ينسب قوى مدركة للطبيعة والأشياء، وأن هذا فى الأغلب ظاهرة عالمية.

إذا وافقنا على التشابه الأساسى فى تطور الفكر بين كل الأفراد الطبيعيين فى الجنس البشرى، كيف لنا أن نفسر إذن التضاد بين

الصناعة الغريبة والمجتمعات التقليدية؟ إن وجهة النظر القديمة، التي عبر عنها بدقة (ليفى برول)، ولا زالت تحظى بتأييد واسع، لكن بشكل أقل من السابق هي : فى المجتمعات التقليدية، المناخ الفكرى المهيمن هو السحرى والصوفى، حيث تشترك اللغة، مع الفولكلور، والدين فى صياغة النمو ذهنى فى قالب مشترك، داعمين ما يمكن أن نسميه، بشكل واسع، خرافة. إن النفس والعالم الخارجى، الاسم والشئ، لا يمكن أن يصلوا إلى مرحلة الانفصال التام، لذا، تتخلل المفاهيم السحرية والصوفية طريقة التفكير فى كل مناحى الحياة. على الجانب الآخر، تسود الأيدولوجية الطبيعية والعقلانية المجتمعات الغربية، مما يعكس المفاهيم السابقة عليها، ويفرض بذلك نظرة موضوعية.

إننا - فى الحقيقة - كلما تعلمنا أكثر، صرنا أكثر تواضعاً بالنسبة لقيمة أفكارنا ومبادئنا، وأصبحنا أكثر استعداداً أن نرضى بالحد الذى توقفت عنده طرقنا فى التفكير، وهو كل ما يظل نموذجاً للعقلانية.

كان هذا موضوع بحث حديث وتحليل بارع لـ (روبين هورتون)، الذى أكد على الاستمرارية والتشابهات بين التفكير التقليدى أو الخرافى لدى الأفارقة، والتفكير العلمى لدى الغربيين. مما اعتبره (هورتون)، مثل آخرين قبله، فرقاً أساسياً بين طريقتين فى التفكير هو : إنه فى الثقافات التقليدية، لا توجد بدائل أخرى يتم تكوينها بشكل ملائم ليمتعض بها عن هيكل المعتقدات التقليدى، بينما

تمتلك الثقافات المتقدمة المعقدة أنواعاً ثرية ومتعددة من تلك البدائل وهى متاحة لأفرادها، على أساس أن المعتقد فى الثقافات التقليدية قالب جامد، لا يستطيع الناس من فورهم التحرك خارجه، أو التخلص منه. هذا التحليل مقنع بكل تأكيد، طالما أن المجتمعات أبقت على عدم اتصالها مع العالم الخارجى. لكن هذا لايساعدنا فى الإجابة على هذا السؤال، وهو : لماذا فى العالم المعاصر ووسط اتصال الثقافات المكثف والتغيير الاجتماعى السريع، وحيث أصبحت البدائل متاحة بشكل متزايد، يظل الناس ممتنعين عن ترك معتقداتهم القديمة؟

مظهر آخر من مظاهر الفكر التقليدى الذى نلاحظه، هو عدم قدرة الأفراد العاديين على التسامح مع الجهل، بعكس العالم الذى يكون دائماً على استعداد للتخلص من نظرية، عندما يثبت خطأها، وحتى فى حالة عدم وجود بديل لها.

وما يرتبط بذلك فى المجتمعات التقليدية، هو ذلك التطور المحدود لأى فكرة وليدة الصدفة؛ إذ تتجه النية دائماً لإرجاع الحدث إلى سبب محدد، مريح.

«عندما يقع فرع شجرة بال، ويقتل شخصاً تصادف أنه كان تحت الشجرة، فيجب أن يكون هناك تفسير محدد لتلك النكبة؛ إذ إنه من الجائز أن يكون الرجل قد تعارك مع شقيقه حول بعض الأمور المتعلقة بالإرث، وقام الأخير بترتيب وقوع الفرع من خلال عراف. أو ربما أنه استولى على ممتلكات أولاده، فجذب أجداد

الأولاد الفرع لأسفل فوق رأسه. لا يمكن استيعاب فكرة أن الأمر كله يتأتى من الاختلاف الذى يحدث عن طريق الصدفة بين سلسلتين مستقلتين من الأحداث؛ ذلك لأن الفكرة لا يمكن، نفسياً، تحملها.

إن فكرة «الصدفة»، الآن، باتت قاطعة، وهى تقف فى قلب مشكلتنا بالضبط، لذا، خُصص لها اهتمام كبير؛ ذلك لأن مانراه من أحداث أو ظواهر يمكن أن يُعتد بها كدليل واضح على توسط قوى خفية من قبل العرافين، وأيضاً هى دليل على استبعاد كونها مجرد صدفة، وبما أن الحدث واحد، فإن ما يختلف هو طريقة التفكير فيه، والحكم عليه. وعلى ذلك يمكن أن نتساءل: هل هناك أية أدلة أو إشارات ثابتة تساعدنا على تحديد ما يمكن اعتباره «موضوعياً»؟

إننا نتكلم عن الصدفة عندما يكون الترابط بين حدثين أو أكثر فى علاقات زمنية أو مكانية معينة من غير المحتمل أبداً أن يحدث بشكل عادى أو طبيعى. وهذه العلاقات، لعدة أسباب، مهمة وذات دلالة، وتتسم بأنها تحدث دون تدخل بشرى، مستقلة عن بعضها البعض.

المثل المستخدم لإظهار التعريف مرة أخرى، يتعلق بشجرة. فى كل الأحوال، الحالة هى أنه عندما ضرب الشخص (أ) الشخص (ب)، أطاحت الرياح بـ (ب)، الذى وقع على الأرض، وفى الوقت نفسه أطاحت الرياح بالشجرة فوقعت، وقتلت (ب) بتهشيمه. يتوافق هذا مع التعريف بأن الصدفة هى : أولاً: توليفة نادرة من الأحداث، وثانياً: أنها مهمة لأنها أدت إلى الموت، وثالثاً : أنها ليست متعمدة

من (أ)، ورابعاً : أن الريح ووقوع الشجرة كانا حدثين مستقلين عن بعضهما البعض. وهناك تفسير آخر أنه إذا كان (ب) قد وقع إلى جوار الشجرة بقوة وقام بجذبها إلى أسفل أو وقع عليها ثم أصبح لسبب أو لآخر تحتها، لما كانت تلك صدفة، وفي هذه الحالة (أ) كلن سيصبح هو السبب في وفاة (ب)، بما أن هناك سلسلة غير منفصلة من الأسباب، وبما أنه من الممكن تبني وجهة نظر أخرى، فإنه يبدو مقبولاً مناقشة فكرة أن هشاشة شجره كبيرة (إلا إذا كان (أ) لديه معرفة مسبقة بذلك) يمكن أن يصل تأثير جسم إنسان عليها إلى حدّ أنه يمكن أن يسقطها هي ظاهرة غير محتملة، وبالتالي فهي صدفة. ربما مثال آخر سوف يوضح ذلك أكثر : إذا افترضنا أن (أ) دفع (ب)، الذي حدث ووقف على ثعبان سام وسط الحشائش التف حوله ولدغته، مما سبب له الموت. سوف نجد هنا أيضاً سلسلة متصلة من الأسباب من النوع نفسه، والتي يمكن النظر إليها بالطبع باعتبارها صدفة.

إن هناك صعوبة أساسية في الحكم على أن ربطاً معيناً بين الأحداث يعتبر صدفة من عدمه، وهنا قد ينشأ سؤال: كيف يكون من الصعب وصف ارتباط ما بين الأحداث بأنه صدفة، وعلى أي أساس معرفي يمكن تقييم ذلك الارتباط؟ الإجابة الوحيدة هي : أن هذا غير محتمل بأي حال من الأحوال في ضوء المعرفة المتاحة لدى الإنسان العادي؛ ذلك لأن «الأشخاص العاديين» يختلفون بشكل كبير، في حكمهم على الاحتمالات اعتماداً على تجاربهم السابقة ومعتقداتهم، وقيمهم. عندما يحلم الإنسان بحدث

ما - مثلاً - ويقرأ عن حدوث ذلك فى اليوم التالى، يمكن أن يظن أن لديه موهبة النبوءة، قد يحدث الشيء نفسه لإنسان آخر فينظر إليه باعتباره مجرد «صدفة». إن الفجوة بين التفكير القديم (البدائى) والحديث أقل بكثير مما يمكننا تصوره. والفخ الذى وقع الفرد المعاصر فيه، هو ذلك الفخ الذى يجعله يشعر بأنه قد وصل إلى درجة من العلم والنمو العقلى التى تجعله قادراً على الفهم والتحليل والتعليل، بينما هو فى الحقيقة أقرب فى هذا الشأن إلى سلوك الإنسان القديم وتفكيره. وهنا قد نتساءل مرة أخرى : هل من المعقول تجاهل مثل ذلك الكم من الأحداث الواضحة، وإرجاعها ببساطة إلى الصدفة أو الحظ؟ هل من الممكن ألا يكون هناك معنى خفى فى الربط بين الأحداث المتباعدة، مما يجعل من تلك الأحداث ما هو أكثر من مجرد صدفة؟ لقد قادت هذه التساؤلات «يونج» إلى أن يوجه اهتماماً كبيراً نحو مشكلة تفسى نسبة حدوث أشياء غريبة متزامنة إلى الصدف خلال القرن العشرين، عندما كان يطور مفهومه عن اللاوعى الجماعى. ويتضمن هذا المفهوم، الصور الأولية النمطية الإنسانية العالمية، التى تشحن بطاقة جسمانية، وتتسلل إلى الوعى تحت ستار رمزى، فيما عرف «بالنماذج الأصلية». وقد وجد «يونج» فى أثناء محاولاته للإجابة على تلك التساؤلات كثيراً من الترابطات التى لم يكن فى الإمكان تفسيرها على أنها مجرد صيغة أو حظ، معتمداً على تجاربه الشخصية التى قادت إلى الاقتناع بأنه يجب أن يكون هناك مبدأ يحكم كل ذلك أسماء «التزامن»، معرقاً إياه بأنه تصادف فى

الزمن بين اثنين أو أكثر من الأحداث غير المترابطة من حيث مسيبياتها، ولكنها تحمل فى طياتها المعنى نفسه أو معانى مشابهة. فمن ناحية، هناك خبرة داخلية، ومن ناحية أخرى، هناك حدث خارجى، والعنصران مرتبطان بشكل له دلالتة، ومع ذلك لا يمكن تخيل أن هناك أية علاقة سببية تربط بينهم، ولقد أتاح هذا ليونج التعامل مع مثل هذه الظواهر التى تبدو غريبة على أنها حالات مرتبطة بتوارد الخواطر، والفراسة فى إطار التزامن، وقد نظر إلى هذه الفكرة باعتبارها كسبًا جديدًا لمساحة أرحب تساعد على فهم تلك الظواهر من داخلها اعتمادًا على الخبرات الشخصية، بوصفها أفضل من النظرة العلمية التقليدية. والحقيقة أن مبدأ التزامن سوف يجعلنا أكثر قريبًا من المعتقدات التى تخص الكون، والموجودة فى المجتمعات التقليدية. وقد كان يونج بالطبع مدركًا لهذا، وإذا كان «التزامن» يمكن أن ينظر إليه باعتباره مبدأ مفسرًا، فإن الكثير مما تم عزوه إلى مسمى «بالسلبية السحرية» لن يكون فى هذه الحالة وهمًا.

على أية حالة، إنه بالرغم من أن الصدف ذات المدلول تختلف بشكل لا نهائى فى ظواهرها، كما تختلف فى ارتباط أحداثها اللاسببى، إلا أنها تكون عنصرًا يشكل جزءًا من الصورة العلمية للعالم. تلك الصورة العلمية، كما يُمكن أن يُتفق عليه بشكل عام، عبارة عن اكتشاف علاقات منظمة داخل الظاهرة، تساعدنا أكثر على فهمها.

وعموماً، وفي ظل ظروف حياة الإنسان الصعبة والضاغطة، وخاصة في حالة الهجوم المفاجئ لمرض خطير على الإنسان، يظهر اتجاه قوى لدى المريض وعائلته - وقد تم دراسة ردود أفعال الكثير منهم - إلى تصديق الخرافات والمعتقدات اللاعقلانية عن مسببات المرض وطرق علاجه.

فإذا عدنا إلى «يونج» سنرى أنه قد جذبتَه فكرة أن الإنسان عالم صغير، أو صورة مصغرة عن العالم. والواقع، أن فكرة الرباط الحميم بين الكور كعالم كبير، والإنسان كعالم صغير، ظلت تلح على الفكر الإنساني حتى الثورة العلمية في القرن السابع عشر.

على أية حال، إن المفهوم المبكر للصدفة، نظر إليها على أنها وقوع أحداث ملحوظة أو وجود ظروف لا تحتمل علاقة سببية ظاهرة تربط فيما بينها، ثم قامت الثورة العلمية في الغرب، لتغير تدريجياً تلك المفاهيم، ولكي توسع الفجوة بين النفس والعالم.

وفي النهاية، فإنه، على الرغم من اختلاف أساليب منهج التفكير العلمي عن أساليب المنظور السحري القديم للعالم، إلا أنه من المهم أن نذكر أن كلا المنهجين له منابعه في الفكر الإنساني، كما أنه يصب فيه في الوقت ذاته.

إن التفكير العادي، الذي يمارسه أيضاً العلماء كأفراد عاديين في المجتمع بعيداً عن مجال تخصصهم، مطالب بتخطي الفجوة بين أسلوب التفكير العلمي والسحري، حيث إنه في مجتمعاتنا في الماضي، وفي المجتمعات التقليدية في عالمنا المعاصر، لا يسمح

بأن تحدث فجوات أساسًا، وإن كل ظاهرة تجد مكانها في المعنى الكلي، وأننا عندما ندرك ذلك ونفعله، ستخف حدة الشك وعدم الثقة، وبالتالي، يتحول النظر عن الخرافة، ويقل الاعتماد عليها فكريًا وسلوكًا.

إن الأفكار التي يؤمن بها الناس، والتصورات التي تحكم سلوكهم، وتحدد علاقتهم بالحياة ومظاهرها والكون وخبائها، تعكس - وتعبّر في الوقت ذاته عن - علاقات اجتماعية، وأبنية ثقافية، وأوضاع سياسية تسود المجتمع الذي يعيشون فيه، كما تشكل أيضًا جزءًا مهمًا من البناء الثقافي الأيديولوجي الخاص بهم. وهذا البناء الثقافي الأيديولوجي لا يقف أثره عند المعاني والأفكار، والتنظيمات السياسية، والمؤسسات الاقتصادية فحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى التأثير في حياة الناس، وعلاقاتهم وخبراتهم وآمالهم ورؤاهم.. إلخ... ولذلك فإننا إذا أردنا أن ندرس الخرافة، وما يرتبط بها من بنى فكرية، وأنماط سلوك، وأشكال ممارسات، كان علينا أن ننظر إليها باعتبارها نسقًا إنسانيًا، يشكل ما يمكن أن نسميه بالنسق الأيديولوجي.

ونحن نعني بالأيديولوجيا هنا نسق المعتقدات من ممارسات وأنماط سلوك تساعد الإنسان على تحديد معنى حياته. فالنظم السياسية والاقتصادية وغيرها إنما تقوم على أساس فلسفة معينة، وهي لكي تضمن بقاءها واستمرارها وتأثيرها لابد أن تعمل على نشر الاتجاهات والأفكار التي تؤكد لها: والعلاقة هنا في الحقيقة

بين النسق الأيديولوجى السائد ومفرداته أو مكوناته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية علاقة جدلية، فهى تؤثر فى هذه المفردات والمكونات، ثم تعود للتأثر بها. وعلى ذلك يعد النسق الأيديولوجى بالمعنى الذى نعنيه هنا، نوعاً من الحاجة التى يشعر بها الناس لتحديد معنى وجودهم، وتيسير اتصالهم ببعضهم البعض. وعلى ذلك فإننا نرى أنه ينبغى النظر إلى الخرافة وتجلياتها، باعتبارها حقائق، وباعتبارها أيضاً انعكاساً أو تعبيراً دقيقاً عن اللاوعى، على المستوى الفردى من ناحية، وعلى المستوى الجمعى من ناحية أخرى.

إن للعقل البشرى تاريخاً خاصاً به، وقدرة على الاحتفاظ بكثير من البقايا التى تنتمى إلى مراحل مختلفة، والتى قد تظهر بشكل أو بآخر، أو تظل كامنة مستترة حتى تتاح لها الفرصة أن تفصح عن نفسها، مما يحتاج منا إلى قدر من التأمل العميق لوجهات نظرنا، وإمعان النظر فى أفكارنا، عن العقل والوعى وما يرتبط بهما. وليس من السهل - حقيقة - إدراك هذا الأمر، لكننا ينبغى أن ندركه وأن نفهمه إذا أردنا أن نعرف المزيد عن الطرق التى يعمل بها العقل البشرى. إننا إذا تأملنا أنفسنا قليلاً، سننتهى إلى أننا لانعى كل شئ تماماً، ولا نفهم كل شئ بشكل مطلق. إننا نستطيع أن نرى، وأن نلمس، وأن نشم، وأن نستمع، وأن نتذوق، ولكن إلى أى مدى يمكننا أن نرى؟ وبأى قدر من الدقة نستطيع أن نسمع؟ وما الذى تفصح عنه لمسائنا؟ وما الذى يخبر عنه تذوقنا؟ إن كل ذلك

يعتمد على عدد حواسنا التي نستخدمها ونوعيتها، وهذا هو الذى يحدد إدراكنا للعالم من حولنا، سواء اعتمدنا على هذه الحواس كلية أو استعنا بالوسائل العلمية التى يمكنها أن تعوّض - جزئياً - نواقص حواسنا وأخطائها.

وفى كل الأحوال ستظل هناك مظاهر لاواعية فى إدراكنا للواقع، وثمة وقائع معينة لم ننتبه لها عن وعى، ونحن الآن عندما نتحدث عن مادة ما، نبذل الجهد من أجل وصف خواصها الفيزيائية، ونجرى التجارب لمعرفة بعض مظاهرها، ولكن كلمة «مادة» تظل مفهوماً جافاً، لا إنسانياً، وذهنياً محضاً، دون أى مغزى معنوى أو نفسى بالنسبة لنا. ولكم كانت صورة تلك المادة نفسها مختلفة فى السابق، عندما كان بمقدورها أن تحمل معانى عاطفية تربط الإنسان بها وبالعالم الطبيعى الذى تنتمى إليه. لقد أخذ الإنسان يشعر بقدر من العزلة عن الكون المحيط به، رغم أنه يجهد نفسه كل يوم من أجل زيادة معرفته به وفهمه له، ومن ثم فقد إلى حد كبير هويته اللاواعية المنفعلة بالطبيعة، والتى فقدت هى الأخرى مضامينها الرمزية، فلم تعد الرياح المزمجرة صوت الإله الفاضل، ولم يعد البرق هو سوطه الذى يلهب به ظهر من أغضبه، ولم يعد النهر هو دموع الزوجه المحبة التى ابتليت بفقد زوجها الحبيب، فلا تنفك تبكيه، وتذرف الدمع حزناً عليه، واختفى الكهف الذى يخفى المردة والعفاريت. لم تعد الأشجار ولا الحيوانات ولا الجمادات تتحدث إليه، ولم يعد هو يتحدث إليها

موقناً أنها قادرة على أن تستمع إليه، وأن تفهمه. لقد قلّ اتصاله المباشر بالطبيعة، وخفتت معه تلك الطاقة الانفعالية العميقة التي كان يعبر عنها هذا الاتصال الرمزي، والتي تم التعويض عنها برموز خرافية، تبدو غريبة علينا، مبهمة بالنسبة لنا، رغم كل المحاولات التي تبذل من أجل ترجمتها إلى العقلاني من ألفاظ ومفاهيم كلامنا الذي نستخدمه.

إن الإنسان الحديث في الحقيقة مزيج عجيب من ميزات مكتسبه على مدى عصور طويلة من تطوره العقلي. وهذا المزيج هو نحن ورموزنا، ولا بد لنا من إمعان النظر فيما تم التوصل إليه من نتائج بحرص شديد؛ ذلك أن الشك موجود جنباً إلى جنب مع اليقين العلمي، والعادات المهجورة، والمشاعر غير المفهومة، والأفكار التي يصعب معرفة أصلها، والعناصر الخرافية.

لم يزل الرقم ١٣ على سبيل المثال نذير شؤم عند كثير منا ١٩ ولم يزل كثير من الناس يتفاءلون ويتشاءمون من رؤية أشخاص معينين، أو سماع أصوات معينة ١٩ ومهما يكن الأمر فإننا لا بد أن نشير إلى الدور الذي يلعبه اللاوعي الجمعي في هذا المجال، ونعني باللاوعي الجمعي هنا ذلك الجانب من النفس أو العقل الذي يحفظ الرموز، وينقل الإرث السيكلوجي المشترك للجنس البشري. تلك الرموز التي قد تكون قديمة، وذلك الإرث الذي قد يبدو غريباً بالنسبة للإنسان الحديث، بحيث لا يستطيع تمثله، أو فهم رموزه، رغم أنه يستخدمها ويتأثر بها. ويقودنا هذا إلى أن نزعّم أن وجوه التشابه التي نراها بين المعتقدات الأسطورية

والبقايا الخرافية، التي ترسبت فى عقل الإنسان المعاصر؛ وبين أشكال من السلوك التى يمارسها، والتعبيرات التى يستخدمها، ليست تافهة ولا عرضية، وإنما هى موجودة وفاعلة؛ لأن لا وعى الإنسان المعاصر مازال قادراً على اختزان الرموز وصنعها، تلك الرموز التى وجدت تعبيراً عنها فى معتقدات القدماء وطقوسهم.

والآن، ماذا نعنى بالخرافة، وما يرتبط بها من مظاهر وممارسات، وأنماط سلوك، وعلاقات؟ إن كلمة الخرافة عندما تذكر يظن كل من يسمعها أو يقرأها أنه يعرف ماهيتها وحدودها، وتجلياتها سواء على مستوى الفكر أو السلوك. والحقيقة أنه من الصعب أن نعين حدود الخرافة تحديداً علمياً دقيقاً؛ ذلك أن ما قد يؤمن به البعض باعتباره حقيقة لا تقبل الشك أو النقض أو حتى مجرد النقاش، قد يراه آخرون خرافات وخزعبلات. وما قد يقوم به البعض من ممارسات يعدونها جزءاً لا يتجزأ من معتقداتهم، وطرق أو أساليب مواجهتهم للقوى المجهولة المؤثرة فى حياتهم، نفعاً أو ضرراً، قد يراه من لا يسلك السلوك نفسه، سلوكاً خرافياً، أو ضريباً من العبث. والحقيقة أن كثيراً من الكلمات التى نستخدمها فى حياتنا اليومية مضلل؛ إذ إننا عندما نسمعها، يتكون لدينا شعور بأننا نفهمها على نحو واضح، أو أننا نعرف معناها بدقة، وما تدل عليه بشكل لا يقبل الشك، ولكننا إذا وجهنا فجأة بأن علينا أن نعرفها، فإننا سنكتشف حينئذ أن ثقتنا هذه لم تكن إلا مجرد وهم، استرحنا إليه؛ لأنه لم يكلفنا عناء التفكير أو التحليل.

ولعلنا مطالبون بأن نضرب أمثلة على ما نزعمه، وعلى ذلك فلنأخذ مثلاً كلمات مثل: «الحب» - «الشرف» - «السعادة» - «الفرح» - «الحزن» - «الإيمان» - «الديموقراطية»، سنرى أنها كلمات يصعب أن نتفق على تعريف محدد لها، سواء على مستوى الأفراد، أو على مستوى الجماعات.

سنركز هنا كمثال محدد على كلمة «الديموقراطية» التي نسمعها كثيراً، ونتحدث عنها كثيراً هذه الأيام، فالذى لا شك فيه أنها تحمل معان ودلالات محببة إلى النفس، وأنها قد اكتسبت قبولاً واحتراماً عميقين بين الناس، ومن ثم فإن معظم الدول تتجه إلى أن تزعم أنها ديموقراطية. ولنفترض أن علينا أن نقرر أن دولة معينة ديموقراطية، وأن أخرى غير ديموقراطية، فعلى أى أساس؟ وما المعايير التي نؤسس عليها قرارنا؟

إن تعريف القاموس للديموقراطية بأنها: «الحكم بالشعب» لا يقدم أى مساعدة حقيقية في هذا المجال، إذا ما حاولنا أن نطبقه عملياً، أو أن نختبر إمكانية تطبيقه حالياً. الذى لا شك فيه أن هناك مجموعة من المعايير التي يجب اختبارها؛ لكي نتأكد من الحكم بوجود الديمقراطية أو تحققها؛ مثل وجود أو غياب انتخابات حرة، ودرجة التحكم أو السيطرة التي تمارسها الدولة على الأفراد، وغير ذلك كثير.

إن بحثاً أميناً دقيقاً سيكشف أن مثل هذه المعايير نفسها يشوبها كثير من الغموض؛ إذ كيف نعين درجة التحكم أو السيطرة

إلى فساد العقل المرتبط بالهرم أو كبر السن، ولم يرد شيء عن الخرافة باعتبارها معتقداً أو ممارسة أو سلوكاً، إلا إذا اعتبرنا حكي الخرافات ممارسة أو سلوكاً يساعد على قطع الوقت، ويسرى عمن يستمعون إليه، ولسنا في حاجة إلى القول إن هذه المعاني لا تقدم لنا مساعدة كبيرة فيما نحن بصدد، فإذا انتقلنا إلى أحد المعاجم الإنجليزية وهو معجم اكسفورد؛ فسنجد أنها معتقد غير عقلاني، أو لا أساس له. وبهذا المعنى الواسع، فإن كلمة «خرافة» تشير إلى . أو تعني . وصف معتقد ما بأنه خطأ أو زائف. وهذا الاستخدام يجعل الكلمة تشبه هراوة، يمكن أن يُفزع بها الإنسان بسهولة كل من يختلف معه في النظر إلى معتقد ما، كما يحدث من وصم كل من يرفض الصهيونية بأنه معاد للسامية، أو من يتحدث عن مجتمع الكفاية والعدل بأنه شيوعي.

ويورد المعجم استخداماً آخر للكلمة، وهو أنها معتقد أو ممارسة دينية غير عقلانية. وهنا يقفز إلى الذهن مباشرة سؤال عمن هو صاحب الحق في أن يقرر ما إذا كان معتقد معين «عقلانياً» أو «غير عقلاني»؟ إن المشكلة الحقيقية أن دين إنسان أو معتقده، هو خرافة إنسان آخر، هكذا فعل المبشرون والدعاة، في وقت مبكر جداً، مع ديانات ومعتقدات الشعوب التي وصفت خطأ بأنها بدائية، ومن ثم بذلوا جهوداً مضنية لنسخها، وإبطالها، وبيان فسادها، وهكذا فعلت الطوائف الدينية المتعددة مع بعضها البعض. ومنشأ كل ذلك . في حقيقة الأمر . كامن في الميل الإنساني العميق الجذور في النفس البشرية إلى تشويه دوافع

التي تمارسها الدولة مثلاً؟ وإلى أى حد تحقق هذه السيطرة القواعد الديمقراطية؟ وهل مجرد التصويت السرى، واستخدام الرموز للإشارة إلى المرشحين فى مجتمع تزيد فيه نسبة الأمية، ضمان للانتخاب الحر؟

ولعلنا نسأل بعض الأسئلة التى تبدو لنا أساسية وهى، هل الديمقراطية الشعبية أو الأحزاب الواحدة التى توصف بأنها ديمقراطية، يمكن أن تؤسس ديمقراطية؟

إن الإجابة ستمتد بالضرورة على نظام المعايير المنتقاة، والطريقة التى تطبق بها، والوزن النسبى لكل معيار، وهذا فى واقع الأمر سوف يقرره بشكل واسع السياسيون الذين يحكمون، ورؤاهم ووجهات نظرهم، وتوجهاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهكذا تصبح الدائرة مغلقة وكاملة، يصعب الفكك منها.

إن ما ذكرناه سابقاً لا يعنى مطلقاً أن كلمة «ديمقراطية» لا معنى لها، ولكن ما أريد أن ألفت الأنظار إليه أن معناها دائماً مرتبط إلى حد بعيد بسياق اجتماعى اقتصادى ثقافى سياسى خاص، وعلى ذلك فإن ما ينطبق على الديمقراطية وغيرها من الكلمات أو المصطلحات التى تتردد وتشيع فى استخداماتنا اليومية، ينطبق أيضاً على «الخرافة». ومن ثم فإننا منذ البداية نقرر أنه من الصعب أن نجد تعريفاً محدداً للكلمة.

ولكن على الرغم من ذلك، فإنه من الضرورى أن نحاول الاتفاق على تعريف ما، يساعدنا على أن نفهم ماذا نعنى بالخرافة، وبذلك

الذين يختلفون معنا، والخط من شأن الذين لا يتفقون معنا حول قضية ما نعدّها مهمة، أو يمتقدون ويرون غير ما نعتقده ونراه صحيحًا على أساس أننا وحدنا الذين نمتلك الحقيقة.

حتى الآن، لم يسعفنا المعجم بشيء نستطيع أن نطمئن إليه تمامًا، لكن - على أية حال - هناك تعريفات أخرى قد تضيء لنا الطريق أو تحل لنا بعضًا من جوانب المشكلة، مثل: أن «الخراقة» خوف أو خشية غير عقلانية من (أو اعتقاد غير عقلاني في) شيء غير معروف، غامض أو متخيل أو اعتقاد غير يقيني أو محير، أو عادة مريبة». وهنا يبدو أننا نقرب من جذر الخراقة، ولعل أول ما ينبغى ملاحظته هنا هو تلك الكلمات «خشية»، و«خوف» و«اعتقاد»؛ تشير جميعها إلى موقف عاطفي أو عنصر شعوري يتصف بقدر من القوة، وفي رأينا أن هذه الإشارة أساسية فيما يرتبط بما سوف نعدّه خراقة، طالما أنها تتضمن موقفًا عاطفيًا أو عنصرًا شعوريًا لا يمكن تجاهله، قد ينجح أو يفشل في التأثير على السلوك.

إن هناك كثيرًا من المعتقدات المتنوعة التي يؤمن بها الناس، وقد يكتسبونها بشكل عرضي، ولكنها بشكل عملي لا توظف عاطفيًا، ولا تؤثر في سلوكهم. وعلى سبيل المثال، قد يمتد البعض أن ثمار «الجوز» تثبت على نوع معين من الشجر، وهذا أمر صحيح، رغم أنهم لم يروا شجرة جوز مطلقًا، كما قد يعتقد آخرون أن السيارة تسير بالماء، وهو أمر غير صحيح، ولكن لا هذا ولا ذاك من المحتمل له تأثير يمكن تقديره أو إدراكه على السلوك؛

يصبح من السهل علينا أن نمضى فى دراستها، ونحن على وعى كامل من أن هذه المحاولة سوف تصطدم مع بعض المشاكل الحادة التى ستواجهنا فى هذه الدراسة، أو التى يمكن أن تقع فى شراكها. لقد اتضح لنا أن التعريفات التى ترد فى المعاجم لا تقدم عوْذُ كبيراً، لكنها على أية حال تصلح لأن نعدّها نقطة ارتكاز أو بدايا ملائمة يمكن أن نؤسس عليها أو ننطلق منها؛ ونُذِلك نورد هنا ما ورد فى بعض المعاجم الأساسية، فى العربية وفى الإنجليزية.

ورد فى لسان العرب:

الْخَرْفُ: فساد العقل من الكبر.

وقد خَرِفَ الرَّجُلُ فهو خَرِفٌ، فسد عقله من الكبر.

وَالْخُرَافَةُ: الحديث المستملح من الكذب، وقالوا: حديثٌ خرافَةٌ أن خرافة من بنى عذرة أو من جهينة، اختطفتُ الجن، ثم رجع إلهم قومه، فكان يحدث بأحاديث مما رأى يعجب الناس منها، فَخَذَّبُوهُ فجرى على السنة الناس.

وفى حديث عائشة رضى الله عنها أن الرسول ﷺ قال لها «حدثينى» قالت: «ما أحدثك حديث خرافة».. إلا أن يريد به الخرافات الموضوعة من حديث الليل، أجروه على ما يكذبونه من الحديث، وعلى كل ما يُستملح ويُعْجَبُ منه.

وهكذا نرى أن المعانى التى يركز عليها المعجم تشير إلهم الحديث الكاذب المستملح الذى يعجب الناس ويسليهم، بالإضافة

لافتقادهما ما نسميه الموقف العاطفى أو العنصر الشعورى. ولكن هذا لا يعنى أن المركب العاطفى أو العنصر الشعورى الأساسى من الضرورى أن يكون قوياً بشكل مطلق؛ وإنما يعنى أن يكون فى الإمكان ملاحظته أو تخمين وجوده على نحو ما.

ولعلنا هنا مطالبون بأن نتأمل أيضاً تعبيرات «غير عقلانى»، و«غامض»، و«متخيل»، و«مريب»، وهى التعبيرات التى وصفت بها تلك المعتقدات والعادات؛ لأنها تضعنا وجهاً لوجه أمام مشكلة عسيرة إلى حد ما، وهى كيفية التحقق منها، وقياسها عملياً، خاصة أننا . باعتبارنا غير مؤمنين بها، أو معتقدين بجدواها . لا نشارك فيها، ونضعها فى منزلة متدنية بالقياس إلى معتقداتنا وعاداتنا، وبعبارة أخرى إن التعريف يعكس هنا حقيقة أن المصطلح «خرافة» يتمتع بدرجة عالية من الازدراء والاحتقار أو بمذاق غير محبب فى أحسن الأحوال. ويؤثر هذا إلى حد كبير على ذلك العدد القليل من المتنورين الذين لا يعنيه أو يقلقهم الاعتراف بأنهم يعتقدون فى بعض ما يطلق عليه خرافات، أو يتمسكون ببعض العادات والمعتقدات التى تبدو متعارضة أو متناقضة مع موقفهم العقلى، ومن ثم يستخدمون فى وصفها تعبيرات فضفاضة رنانة، ويقدمونها فى شكل إيجابى، مطلقين عليها «حكمة القدماء»، أو «علم التجيم»، وهم يشعرون كثيراً بأنهم أقلية متميزة فى فهمها وعمق بصيرتها بالقياس إلى غيرهم ممن لا يرون رأيهم، ويرفضون بشدة فكرة وصفهم بأنهم يؤمنون بالخرافات. والحقيقة أنه لا بد

من وجود أسلوب ما يمكن به التوصل إلى معيار أو معايير لتقرير ما هو صواب وما هو خطأ في هذا الشأن.

إن الخرافة سواء أكانت معتقداً أم سلوكاً عارضاً أم كانت شيئاً أساسياً دائماً، لا يمكن النظر إليها أو معالجتها على أسس موضوعية. إنها في الواقع عملية معقدة من الحسابات، ومجال متسع يشمل ما يمكن اعتباره مجرد خرافة، وما يمكن النظر إليه باعتباره توقعاً عقلياً أو عاطفياً، ويصدق هذا على كثير من المعتقدات التي يكاد يكون من الصعب - بل لعله من المستحيل - مناقشة ما إذا كانت خرافات أم لا؟ ويمكن لنا القول إنه إذا كان هناك دليل أو شاهد على معتقد ما، وكانت الاحتمالات الخاصة به ذات كم معقول، وجديرة بالتعويل عليها أو ذات مصداقية، فإنه لا شيء يمنع من أن تكون لديه فرصة للإيمان به، والاعتقاد فيه، ولكن إذا كان الأمر على عكس ذلك، بمعنى أن الاحتمالات قليلة، والمصداقية مفقودة، أو يصطدم مع معتقد أساسي لا يمكن نقضه، ففي هذه الحالة، يكون المعتقد، وما يرتبط به من سلوك، خرافة.

ولعلنا نزعم هنا أن لدينا حلاً مرضياً للمشكلة، وعلى ذلك، فلنحاول أن نطبق هذا على حالة متكررة، ولتكن ما يرتبط بالحسد كمعتقد وسلوك. عدد هائل من الناس في مجتمعاتنا يمتدنون في الحسد، وكثير منهم لا يشك في قدرهم وعقلهم، ولا في استقامتهم، يذكرون أحداثاً ووقائع عن حاسدين ومحسودين،

مؤكدين أنهم عاينوها بأنفسهم. يذكر أحمد أمين^(١). «يعتقد المصريون كثيرًا في الحسد، وخلاصة هذه العقيدة أن بعض الناس عنده خاصية في عينه، إذا نظر إلى شيء أماته أو أتلفه. ومن غريب الأمر أن رجلاً عظيماً كابن خلدون يحكى مثل هذا، ويقول إنه شاهد بعض الناس إذا نظر إلى خروف أو نعجة نظرة خاصة أماتها، ثم إذا شرحت وجد قلبها قد تحتت. وقال إنه رأى في بلاد المغرب جماعة من هذا القبيل يسمون البعاجين».

ويعتقد المصريون أن الحسد يكون على أتمه إذا نظر الحاسد وشفع نظره بالشهيق. وكان من الشائع عند النساء أنه إذا نظر رجل تلك النظرة، أسرع المرأة، وقالت له: «وراك تعبان أو عقربة أو نار»، فيلتفت وراءه لينظر إليه، وبذلك يذهب سحر عينه. ويدأون ذلك بأن يأخذوا قطعة من طرف ثوب الحاسد، ويبخروا بها المحسود، سواء أكان إنساناً أم حيواناً أم شيء آخر.

ويزيد الاعتقاد في الحسد إذا اشتهى ما عند المحسود، كأن كان الحاسد فقيراً، والمحسود غنياً، أو عند المحسود مواش وأموال يشتهيها الحاسد، وكما إذا كان الحاسد ليس له ولد والمحسود كثير الولد. ويزعمون أن الحجاب يمنع العين، ولهم في ذلك طرق، منها وضع قليل من الملح الجريش في كيس يعلق في عنق الأطفال، وكذلك ناب الذئب، أو ناب الضبع، أو رأس هدهد

(١) أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٩٥٢، القاهرة، ص ص ١٦٦ - ١٦٧.

عليه ريش توضع فى قطعة من القماش الأحمر ويخاط، وأحياناً يداون الحسد بالرقى، ومن ذلك رقية مشهورة وهى:

«بسم الله أرقيك، من كل شىء يؤذيك. ومن كل عين حاسد. بسم الله أرقيك والله يشفيك، من كل نفس أو عين».

ومن هذه الطرق أن يوضع قليل من الملح فوق جمر من النار، ويقف المحسود، ويجعل الجمر بين رجليه وتلى الرقية المذكورة. ثم تجعل الراقية وجهها فى وجه الذى ترقيه، وتتشاءب بشدة حتى يتشاءب المحسود. ويحكون أن رجلاً اشتهر بالحسد فكان يجتمع إليه أصحابه، فإذا مر جمل اشتهوه، طلبوا من الحاسد أن يحسده، فيقع على شفا الموت، فيذبح ويؤكل.

ومن الرقى:

«بسم الله الرحمن الرحيم. بسم الله عظيم الشأن، شديد البرهان، ما شاء كان. حابس حابس، من حجر يابس، وشهاب قابس. اللهم إني رددت عين العائن عليه، وعلى أحب الناس إليه، وفى كبده وكليتيه، ولحمه ودمه. فارجع البصر، هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير».

وأحياناً تأتى بعض العجائز فتوقد ناراً، وترمى فيها من «الشب»، وتذكر أسماء الذين يظن أنهم الحسدة، وتأخذ دبوساً أو إبرة فتضعه فى عين الصورة التى تحول إليها الشب، وتقول فقاً الله عينها. وقد تأخذ قطعة من الورق، وتشك فيها الدبوس مرات متعددة، فى كل مرة تقول من عين فلانة أو عين فلان (تذكر أسماء

من تظن أنهم الحسدة) اللى شافوك ونضروك ولا صلوش على النبى، وتكرر ذلك كلما ذكرت اسمًا، ثم يبخر المحسود بهذه الورقة مع الملح وتحرق بعد ذلك.

ويعتقد المصريون أيضاً فى «الأر» ويعنون به الحسد بالكلام، فإذا مرض المريض وكان فى نعمة من ناحية ما، قالوا «أر عليه الناس». وإذا أصيب إنسان ذو نعمة بشئ من الضرر، قالوا «دا من أر الناس» يعنون أن الناس حسدوه بكلامهم، وعلاج ذلك عندهم بالبخور (أى تبخير المحسود).

الآن هل يمكن لنا أن نتساءل أين يقع الحسد، والاعتقاد فيه، والممارسات الخاصة به، والشواهد التى تحكى عنه، على القائمة التى تتراوح بين الخرافة والتوقع المعقول؟

من المؤكد أنه ليس لدينا إجابة جاهزة على هذا السؤال طالما أن المشكلة تتطلب أولاً قراراً فيما يتعلق بما يمكن أن نعطيه من ثقة لحكايات شهود العيان بالمقارنة بأراء العلماء ووجهات نظرهم.

إن نتيجة عملية كهذه لاستحداث توازن بين الـ مع والـ ضد، سوف تكون إلى حد بعيد معتمدة على الأفكار والمعتقدات المسبقة للإنسان، ومن ثم فإنها ستكون ذاتية إلى حد كبير. وفى مثل هذا النوع من القضايا، سوف يكون صعباً جداً أن يكون فى الإمكان أن نتوصل إلى تقييم موضوعى للاحتتمالات. وحيث إن هذه الاحتمالات موجودة، فلعله من المفيد أن ننظر عن قرب وبشئ من التعمق إلى الأسس التى تستند إليها.

ويقودنا هذا الأسلوب فى التحليل إلى نتيجة مؤداها أن ما هو «خرافة» إنما هو أمر ذو صلة بالزمان والمكان. ففى العصور الوسطى مثلاً كانت أوروبا مليئة بمعتقدات توصف اليوم بأنها خرافات. كان العالم كما رآه الناس آنذاك مليئاً بالسحرة والشياطين والجنيات، وكل أنواع الوحوش الغريبة. وكان طبهم متاغماً مع السحر، كما كانت المعجزات شيئاً مألوفاً يكاد يحدث كل يوم فى مكان ما.

فى هذا العالم عاش الناس جميعاً تقريباً، بدءاً من الصائد والفلاح البسيط، والدارس المتعلم، إلى العالم المتخصص، بينما كان الذين يتشككون فى ذلك، وهم قلة قليلة، يتساءلون فقط عن مغزى بعض هذه المعتقدات والممارسات التى رأوا أنها غريبة لا تتفق مع العقل. ولما كانت هذه المعتقدات والممارسات لا تتناقض ولا تعادى ما ورد فى التراث الدينى؛ فقد نظر إلى هؤلاء المتشككين على أنهم منحرفون، وكان هذا يعنى أنهم يخاطرون بحياتهم إذا ما تجرعوا وجأهروا بشكوكهم تلك علناً. ولا يزال السحرة، والجنيات، والعفاريت، والحيوانات، والطيور الغريبة، والكائنات، والمدن العجيبة تعيش فى حكاياتنا الشعبية (الحواديت) وتراثنا، وما يزال الاعتقاد فى وجودها موجوداً بشكل أو بآخر، فى كثير من أنحاء العالم، والحكاية التالية التى وردت فى التراث العربى تحكى عن مدينة لا وجود لها: يحكى أنه لما بلغ الوليد بن عبد الملك، خبر مدينة النحاس، وخبر ما فيها من الكنوز، وأنه إلى جانبها بحيرة فيها جواهر وأموال كثيرة عظيمة، كتب إلى موسى بن

نصير عامله على المغرب والأندلس يأمره بالمسير إليها، والحرص على دخولها، وأن يعرف حالها. ودفع الكتاب إلى طالب بن مدرك، فحملة موسى بن نصير وهو بالقيروان، فلما قرأه تجهزه، وسار في ألف فارس نحوها، فلما رجع كتب إلى الوليد بن عبد الملك.

«بسم الله الرحمن الرحيم، أصلح الله الأمير صلاحًا يبلغ به خير الدنيا والآخرة، أخبرك يا أمير المؤمنين أني تجهزت جهازًا يكفيني أربعة أشهر، وسرت في مغاور الأندلس ومعى ألف رجل، حتى أوغلت في طرق قد انطمست ومناهل قد اندثرت، وانمحت فيها الآثار، وانقطعت عنها الأخبار، فسرت ثلاثة وأربعين يومًا، أحاول رؤية مدينة لم ير الرأون مثلها، ولا سمع السامعون بنظيرها، فلاح لنا بريق مشارفها من مسيرة ثلاثة أيام، فأفزعنا منظرها الهائل من بعيد، وامتألت قلوبنا رعبًا من عظمها وبعد أقطارها. ولما قرينا منها إذا أمرها عجيب، فنزلنا عند ركنها الشرقي. ثم وجهت رجلاً من أصحابي في مائة فارس، وأمرته أن يدور حول سورها ليعرف بابها، فغاب عني يومين، ثم وافانا في اليوم الثالث، فأخبرنا أنه ما وجد لها بابًا، ولا رأى لها مسلًا. فجمعت أمتعة أصحابي إلى جانب سورها، وجعلت بعضها على بعض لأنظر من يصعد إليها فيأتيني بخبر ما فيها، فلم تبلغ أمتعتنا ريع السور لارتفاعه. فأمرت عند ذلك باتخاذ سلالم، وشد بعضها إلى بعض بالحبال، ونصبتها على الحائط، وجعلت لمن يصعد عليها، ويأتيني بخبر ما فيها عشرة آلاف درهم. فانتدب رجل من أصحابي نفسه لذلك، وأخذ يتسنى السلالم ويقرأ ويتعوذ. فلما

صار على سورها، وأشرف على ما فيها فهقه ضاحكاً، وسقط فيها، فتأديناه أن أخبرنا بما فيها وبما رأيته فلم يجبنا. فجعلت لمن يصعد بعده ويأتيني بخبرها وخبر الرجل ألف دينار، فانتدب رجل من حمير نفسه لذلك، وأخذ الدنانير، ثم صعد، فلما استوى على السور فهقه ضاحكاً ثم سقط فيها. ونادينا أن أخبرنا بما رأيت فلم يجبنا، فصعد ثالث وكان حاله مثل حال صاحبيه، فامتنع أصحابي بعد ذلك عن الصعود.

فلما يئست منها رحلت نحو البحيرة التي بجانبها، وسرت مع سور المدينة، فأنتهيت إلى مكان من أنسور فيه كتابة بالحميرية، ثم سرت حتى وافيت البحيرة عند غروب الشمس، فإذا هي مقدار ميل في ميل كثيرة الأمواج، وإذا رجل قائم فوق الماء، فتأديناه من أنت؟ فقال: أنا رجل من الجن، حبسني هنا سليمان بن داود، قلنا: فما بالك قائماً فوق الماء؟ قال: سمعت صوتاً فظننته صوت رجل يأتي هذه البحيرة مرة في كل عام فيصل على شاطئها أياماً ويهال لله ويمجده. قلنا: من تظنه؟ قال: أظنه الخضر عليه السلام. وغاب عنا، ولم ندر أين توجه. وكان معي عدة من الفواصين فأمرتهم أن يفوصوا في الماء، ففاصوا ورأوا قممًا من نحاس مختوما برصاص، جلبوه معهم، فأمرت به ففتح، وخرج منه مارد من نحاس على فرس، وبيده رمح من نحاس، فطار في الهواء، وهو يقول: يا بني الله لا أعود. ثم غاصوا ثانية وثالثة فأخرجوا قماقم مثل هذا القمقم. ولما يئست وضع الجيش خوفاً من انقطاع الزاد، أخذت الطريق التي سلكتها،

وربما أعاننا على مزيد من التعرف على ماهية الخرافة، مناقشة ما لصق بالخرافة من وصفها بالزيف، والحقيقة أن «الزيف» مسألة نسبية ذات علاقة بموقف معين من المعرفة. فعلى سبيل المثال يوجد اعتقاد راسخ فى كثير من الثقافات . ينظر إليه باعتباره زائفاً أو غير حقيقى عند الكثيرين . أن المرأة الحامل تكون فى وضع خاص وحساس، وأن ما تمر به من مراحل ومواقف وظروف يؤثر فى نسلها بشكل أو بآخر، وبطرق مختلفة، ومن ثم فإن عليها . وعلى من يحيطون بها . ملاحظة مجموعة من أشكال الاستجابة والوقاية والاجتناب، ترتبط فى بعض الثقافات بالخوف من الأرواح الشريرة، وما يشابهها، وترتبط فى ثقافات أخرى بما قد يصيب الجنين، إذا اشتهد نوعاً من الطعام مثلاً، ولم يتم تحقيق رغبتها فيه، فيما يعرف فى الثقافة المصرية «بالوحم»، وعلى ذلك يصبح من الضرورى تلبية طلباتها، وإشباع رغباتها لأنواع معينة من الطعام التى تشتهيها وتغرم بها . ويؤكد هذا الاعتقاد أنه تم تسجيل عدد كبير من النتائج السيئة التى حدثت، وكانت حصيلة تجارب وخبرات غير مرغوب فيها فى أثناء فترة الحمل . وبينما يؤمن كثيرون بهذا المعتقد، فإن كثيرين أيضاً كانوا ومازالوا ينظرون إليه باعتباره خرافة . لكن الدراسات العلمية الحديثة أثبتت أن المرض العضوى الذى يصيب المرأة فى أثناء الحمل، ليس هو الذى يؤثر على الجنين، بل إن الحالة المعنوية والتوتر والضغط النفسى تؤثر أيضاً على الجنين، منتجة استواء أو اضطراباً فى السلوك، ومن ثم فإن دعوة النساء الحوامل إلى الحرص على الابتعاد عما يكرر

صفوهن، وأن يعشن في جو يسوده السرور والحبور، ونصح من يحيطون بهن وحثهم على أن يوفروا لهن هذا الجو، إنما هو أمر حقيقي، ودعوة صحيحة، ونصيحة عميقة أكثر من كون ذلك خرافة.

ولعلنا نخطو خطوة أخرى إلى الأمام، بأن نحاول توظيف بعض الأبحاث النمطية التي تناولت بالدراسة أنواعاً مختلفة من الخرافات، لكي نكتشف ما إذا كانت تتضمن عنصراً من الحقيقة. من ناحية المبدأ، يمكن ذلك، ولكن عملياً هناك شرك ومخاطر كثيرة في مثل هذا النوع من الأبحاث. إننا نعرف ما يحيط بالرقم ١٢ في معظم الثقافات الإنسانية، كما نعرف أيضاً ما يحيط بيوم الجمعة في ثقافتنا من اعتقاد بأن فيه ساعة نحس. ومن المدهش أن كثيرين ممن يؤمنون بذلك لا يعرفون أصل هذا المعتقد، ومع ذلك فإنه يجعلهم متوجسين، خائفين من استخدام الرقم في الثقافة الغربية عامة، ومن يوم الجمعة في ثقافتنا إلى حد كبير.

لنفترض أن بحثاً يريد أن يثبت ما إذا كان الجمعة ١٢ في الحقيقة، يوماً سيئاً، أو يوم نحس. يمكن للإنسان أن يقارن بين الحوادث التي تحدث يوم الجمعة، والحوادث التي تحدث في بقية الأيام. والآن لنفترض أننا وجدنا أن نسبة الحوادث التي تحدث يوم الجمعة عالية بشكل لافت للنظر من الناحية الإحصائية، ستكون النتيجة على هذا النحو على غير ما نريد فهل يمكن أن نعزو ذلك إلى مجرد المصادفة؟ أو على الجانب الآخر، هل نستطيع أن نؤمن

والحمد لله الذى حفظ لأمير المؤمنين أموره، وسلم له جنوده والسلام^(١).

ولسنا فى حاجة بالطبع أن نذكر أن مدينة النحاس محض خرافة، وأن القماقم التى حبس فيها سليمان عليه السلام الجن المارقين أشياء خرافية أيضاً، وأن هذه الحكاية رغم ما يرد فيها من أسماء أشخاص حقيقيين لهم دورهم التاريخي، كالوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، وقائده موسى بن نصير، إنما هي خرافة أيضاً. لكن ورود مثل هذه الحكاية، وهو كثير، سواء فى كتب التراث العربى على اختلافها، أو فى حكايات «ألف ليلة وليلة» ينفي عن الخرافة وما يرتبط بها من تفكير وسلوك أنها تعود إلى تلك المرحلة المفترضة التى عاشها الإنسان، ووصفت بالبداية خطأ، وأن الخرافة انتهت بانتها صانعيها، والمعتدين فيها، والممارسين لطقوسها، فالحقيقة أن الخرافة موجودة فاعلة مؤثرة على نحو أو آخر.

على أية حال، إن معتقدات معينة يمكن إثبات عدم صحتها، وزيفها، ومن ثم فإننا مع مثل هذه المعتقدات يسهل أن نقرر أنها محض خرافات. لكننا للأسف لا نستطيع أن نعمم ذلك فى كل الحالات؛ ذلك أن الأمر ليس بالسهولة أو البساطة التى نتصورها، فالأدلة السلبية يصعب إثباتها عامة.

(١) د. شوقي ضيف، عجائب وأساطير، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، ص

أنها حقيقة، ومن ثم فهي ليست خرافة! بالطبع كثيرون - على العكس من الأدلة المادية - سيرفضون اعتبارها حقيقة، وسيفضلون اعتبار ذلك مجرد صدفة. إن المعتقدات ليس مجرد أفكار أو أشياء يؤمن بها الناس فحسب، إنها تؤثر في تصوراتهم عن أنفسهم وعن غيرهم، وتصوغ تصرفاتهم وسلوكهم أيضاً، إزاء أنفسهم وإزاء غيرهم، فالاعتقاد مثلاً في أن السحر حقيقة قد أدى إلى موت كثيرين اتهموا بممارسة السحر، أو بأنهم سحرة.

وعلى ذلك، إذا قرر عدد معتبر من الأفراد أن هناك ساعة نحس في يوم الجمعة، أو أن الجمعة ١٣ يوم نحس، فإنه من المتوقع أن يؤثر هذا على سلوكهم في هذا اليوم المعين، وقد يجعلهم هذا قلقين متوترين تتسم تصرفاتهم بالنعصبية، ومن ثم تزداد نسبة الحوادث نتيجةً مثل هذا المعتقد وهو أمر سهل توقعه، ويمكن إثباته بمقال آخر مختلف، لا علاقة له بالخرافة. إذا اعتقد مستثمرون مثلاً أن الدولار الأمريكي ستهبط قيمته أو ينخفض سعره، فإنهم سيبيعون بالضرورة وبسرعة ما لديهم منه، وبذلك تهبط قيمته وينخفض سعره فعلاً، وعندئذ سيصبحون متاكدين من صحة اعتقادهم الذي يقوم على صدقه دليل غير صحيح، هو الذي أدى إلى النتيجة التي اعتبروها طبيعية وصحيحة. وبالطبع هناك كثير من الحوادث التي يمكن أن يكون لها أكثر من تفسير كما حدث في حالة امرأة شابة، أم لثلاثة أطفال، كان عليها أن تجرى عملية جراحية بسيطة. دخلت المرأة المستشفى، وأجريت لها العملية، وسارت الأمور على ما يرام تماماً، وكما هو متوقع، فالجراح الذي

أجرى العملية خبير متمكن، كما أن العملية بسيطة لا تعقيد فيها، واستعادت المرأة وعيها، قبل مفادرة غرفة العمليات، وفي حجرتها في المستشفى، رأت زوجها وأطفالها الذين كانوا في انتظارها، وتبادلت معهم الحديث، مداعبة أطفالها، معبرة عن سعادتها برؤيتهم. بعد ساعة واحدة، انهارت المرأة تماماً، ورغم كل محاولات الأطباء لإنقاذها، ماتت صباح اليوم التالي. واستدعى غرابة ما حدث الحاجة إلى تشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة، كان السبب نزيفاً حاداً لم يعرف الأطباء له سبباً عضوياً أو تشريحياً. عرف الجراح بعد ذلك أن عرافاً كان قد أخبرها عندما كان عمرها خمس سنوات أنها ستموت في عيد ميلادها الأربعين، وكان قد مر عيد ميلادها قبل أسبوع من إجراء الجراحة، وأنها كانت قد أخبرت أختها والممرضات أنها لا تتوقع أن تخرج حية من غرفة العمليات.

هذه هي القصة بعيداً عن التفاصيل الطبية التي لن تفيدنا بشيء فيما يرتبط بما نحن بصدد، وهنا نتساءل ما النتائج التي يمكن أن نستخلصها من هذه الحادثة؟ من السهل تماماً أن يفسر البعض الأمر على أنه مجرد مصادفة، وقد يفسره آخرون بأن هناك إمكانية لأن تكون النبوة بما تحويه من تشاؤم قد سببت بشكل غير مباشر الموت، وأن التوترات النفسية، والضغط العاطفية الحادة لهذه المريضة. نتيجة اعتقادها في النبوة. كانت شديدة التأثير على جهازها العصبي مما أدى بها في النهاية إلى الموت. وبالطبع فإن هناك مجالاً لاحتمال أو تفسير ثالث وهو أن

الموت لم يكن شيئاً عارضاً لا صلة له بالنبوة فحسب، وإنما هو يثبت أو يؤكد صدق العراف، وبصيرته النافذة، وعلمه بالغيب!!! ذلك أن كثيراً من الناس يؤمنون بأنه يمكن معرفة المستقبل، والتنبؤ بما سوف يحدث للإنسان فيه، وهنا سيجدون في هذه الحالة نموذجاً مثالياً لإثبات ذلك.

إن هذه الرحلة الطويلة والمناقشات الكثيرة لم تنته بنا إلى تحقيق هدفنا من تعريف الخرافة، بل إنها على العكس، زادت من تعقيد المشكلة، وأوضحت أنه ليس هناك إلى الآن وسائل موضوعية لتمييز الخرافة عن أنماط أخرى من السلوك والمعتقدات والأفكار. لكننا مع كل ذلك سنظل نحاول، وفي هذا الصدد لا بد من الإشارة إلى دراسة متميزة نشرت عام ١٩٦٢ بعنوان «التفكير الخرافي»^(١)، يرد فيها ما يلي:

إن الخرافة في الاصطلاح العلمي لا يقتصر معناها على مجافاتها للواقع، وهي بالمعنى الضمني اعتقاد أو فكرة لا تتفق مع الواقع الموضوعي، بل تتعارض معه. ولكن ليس كل اعتقاد أو فكرة تتعارض مع الواقع تعتبر من الناحية العملية خرافة، ولكن يشترط في هذا الاعتقاد أن يكون له استمرار، فهو ليس مجرد خاطر طارئ لموقف وقتي أو تفسير عارض لظاهرة عرضية، بل له وظيفة في حياة من يؤمنون به ويستخدمونه في مواجهة، وفي حل بعض المشكلات الخاصة في الحياة.

(١) د. نجيب إسكندر إبراهيم، ود. رشدي فام منصور: التفكير الخرافي، بحث تجريبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١٨ - ٢٢.

والخرافة بعبارة أخرى تفسير يزود من يؤمن به بوسيلة لمواجهة مشكلة لا يعرف صاحبها طريقاً أفضل منها لمواجهة المشكلة.

الخرافة إذن اعتقاد خاطئ له استمرار يفسر ظاهرة ما أو مشكلة يتكرر ظهورها في حياة الناس، ويغلب عليها المضمون الغيبي والميتافيزيقي.

والخلاصة أننا نستطيع مما تقدم أن نحدد الشروط التي تحدد الخرافة فيما يلي:

١. البعد عن الواقع الموضوعي.

٢. شيوعها بين عدد كبير نسبياً من أفراد المجتمع.

٣. الافتقار إلى العلمية المنطقية، أو العلمية، والاستناد في كثير من الأحيان إلى المفاهيم الغيبية والميتافيزيقية، مثل: الحظ والأرواح والسحر، وتستخدم هذه المفاهيم في تفسير ظواهر طبيعية يمكن في حقيقة الأمر تفسيرها تفسيراً سليماً بالالتجاء إلى الملاحظة المنظمة، والدراسة على الشواهد الموضوعية.

على أية حال إننا سنستخدم كلمة أو مصطلح «خرافة» في هذه الدراسة بمعنى نوع من المعتقد أو السلوك أو الحدث الذي يعتبره العقلانيون في مجتمعاتنا المعاصرة خرافياً. وهنا ينبغي أن نؤكد أن هذا يعني أنه إذا تمت الإشارة إلى معتقد أو ممارسة ما أو سلوك خاص على أنه خرافى، فإن هذا يعتمد فقط على أن إجماع المتعلمين المثقفين المعاصرين يعتبره كذلك. ولسنا بالطبع في

بشكل مباشر، لكنه لم يكن قادرًا آنذاك على فهم أسباب ذلك، كما لم يكن مدركًا بشكل يقينى النتائج التى تترتب عليه. كان يسعى جاهدًا لكى يسيطر على ما حوله من كائنات، وأن يتحكم فيما يحدث له من أحداث، وأن يسخر الظواهر التى كان يراها خارقة عجيبة لا قبل له بمواجهتها؛ لتكون كلها فى النهاية محققة لنفعه خاضعة لإرادته.

ومما لا شك فيه أن كثيرًا من المعتقدات القديمة فى طرقها لأن تفقد تأثيرها ووجودها مع انتشار التعليم، والثقافة الحديثة، والتقدم التكنولوجى المعاصر. ومن الصعب الآن أن نجد أناسًا يؤمنون أن الزلازل تحدث نتيجة انتقال الأرض من أحد قرنى الثور الذى يحملها إلى القرن الآخر. لكن ما هو أكثر استثارة للدهشة والتأمل، ومن ثم يحتاج إلى إمعان النظر، هو أن أنماطًا أخرى من المعتقدات والممارسات - الخرافية - مستمرة بكامل قوتها، جنبًا إلى جنب مع الأفكار الحديثة، ومع كل ما حققه الإنسان من تقدم فى إدراك أسرار الكون، والسيطرة على كثير من ظواهره، ونعنى بذلك، معتقدات وممارسات مثل: الحسد، والسحر، وقراءة الطالع.. الخ.

وسنجد أن هناك متعلمين مازالوا يؤمنون بالحسد، وتسخير الجان، وقدرة البغض على معرفة المستقبل، ومعالجة الأمراض، ومخاطبة الأرواح، وغير ذلك.. بل إنهم يؤكدون صحة بعضها، وأنها جزء من المعتقد الدينى.

إن هناك قدرًا من الخرافات التي يمكن أن نزعّم أن معظمها مما يشترك فيه أفراد المجتمع، وبعضها يمكن أن نكتشف أنه كان في الماضي جزءًا من نظام أكبر، وأكثر اتساعًا من الأفكار والمعتقدات السائدة، ولكنها الآن تتألف من عناصر منعزلة تنتقل عن طريق الموروثات التي لما تفقد قوتها؛ إذ ما تزال فاعلة مؤثرة سواء على مستوى الفكر أو على مستوى السلوك. وكثير من هذه الخرافات يتعلق بالحظ، وبالسعد والنحس مثلاً، سواء أخذت شكل الدعوات أو الممارسات التي يفترض أنها تقدم الحماية، وتمنع الضرر، وتجلب الخير. ويمكن أن نضرب أمثلة لهذا النوع من الخرافات مما يرتبط بنثر الملح، ومسك الخشب، والإشارة بأصابع اليد مع قول خمسة وخميسة، والرقى، والتعاويذ.. وهكذا.. وهناك أنواع أخرى تتعلق بالأحداث المهمة في دورة حياة الإنسان، من الميلاد، فيما يمارس من عادات - مثلاً في الاحتفال بالسبوع - وفي الختان والزفاف، والاحتفال بموالد الأولياء والقديسين، وانتهاء بالموت، وما يرتبط به من أفكار وممارسات.

كما قد تكون هناك مهن وحرف لها خرافاتها الخاصة، خاصة بما يرتبط بما نسميه الطب الشعبي مما يرفض الأطباء المعاصرون الاعتراف به أو الانتباه إليه، وقراءة الفنجان، وقراءة أوراق اللعب «فتح الكوتشينة» وقراءة الكف، وما إلى ذلك.

كل هذا، وكثير غيره، يمكن أن ننظر إليه باعتبارها أشكالاً مؤسسية للخرافة، حيث لا يؤمن الناس الذين يمارسونها أو

حاجة إلى القول أن مثل هذا الحكم قد يكون خاطئاً، لكننا نفترض أنه مادام هناك قدر معقول من الاتفاق، فليس هناك بالتالي مجال كبير للخلاف.

ولكى نتوصل إلى تعريف عملي يغطي أكبر قدر من الممارسات والمعتقدات التي ينظر إليها باعتبارها خرافات، فإننا ننحو نحو توسيع المجال؛ لكي يضم بدءاً من الأرقام والألوان والأيام التي قد يرى البعض أنها تجلب السعد أو النحس، والتي قد تدعو إلى التفاؤل، أو تنذر بالشؤم، ومروراً بالسحر، وتسخير الجان، والتنجيم، والأشباح، والأرواح، وتفسير الأحلام، وقراءة الطالع... إلخ، وبعض الأدوات والوسائل التي يستخدمها من يعتقدون في هذه المعتقدات لتحقيق مطالبهم كالأحجية، والأدعية، والبخور، والرقصات وغير ذلك.

إن الخرافة - في حقيقة الأمر - تشكل جزءاً من رؤية كونية عالمية مترابطة منطقياً ذات جذور عميقة في فكر الإنسان وسلوكه.

لقد ذكرنا أن الإنسان شغل نفسه منذ البداية بما حوله محاولاً فهمه، وحاول - وأعتقد أنه مازال يحاول - أن يتعرف على ذاته، وأن يدرك ماهيتها، وعلى العالم الذي يعيش فيه، والكائنات التي تحيط به. والظواهر التي تحدث حوله، سواء أكانت في متناول يده أم كانت بعيدة عنها؛ ذلك أنه رأى أن بعضها يؤثر فيه، ويتأثر به،

يعتقدون فيها بمعتقدات متشابهة فحسب، بل إنهم يلتقون إنسانياً، ويمتزجون اجتماعياً، ويتبادلون الخبرات والتجارب، ويعملون معاً من أجل تعزيز هذه المعتقدات وإكسابها شرعية، من أجل تحقيق الأهداف التي ترتبط بتلك المعتقدات.

وإذا ما أخذنا ما يرتبط بخبرات السحر والتنجيم عند الأفراد مثلاً على شيوع خرافات معينة مثلاً، فإننا لابد أن نحاول طرح سؤال عما إذا كان من الممكن اعتبار تلك الخبرات خبرات أصيلة أم لا؟

إن هذه الخبرات قد تنشأ بين أناس متعلمين يؤمنون بالعلم، وتنتشر بينهم، وتنتقل منهم إلى آخرين ربما يكونون أقل تعليماً، واهتماماً بتنفيذها أو الدفاع عنها.

إن الذين يشاركون في جلسات تحضير الأرواح مثلاً، قد يشعرون أنهم مروا بتجربة سحرية مثيرة وغامضة، شاركوا غيرهم فيها. وقد يذكر البعض أنهم رأوا الأشباح أو العفاريت في مكان محدد، وأنهم تحدثوا إليها، ويصفون هيئتها، وما قد تأتيه من أفعال غريبة معهم.

وعلى أية حال، فإن هذه الخرافات تتنوع، وتتعدد، ولعله من الصعب أن يكون في الإمكان أن نضع خطوطاً فاصلة واضحة بينها، إلا أن هناك - على الأقل - عنصراً مشتركاً بينها لابد من وضعه في الاعتبار، وهو عنصر المشاركة الاجتماعية للأفراد الذين يؤمنون بها، أو يشاركون في ممارستها.

ويقودنا هذا إلى الإشارة إلى نوع آخر من الخرافات يمكن لنا أن نسميه خرافات شخصية، ونعني بها معتقدات أو ممارسات فردية، خاصة بأفراد يؤمنون بها، ويمارسونها بشكل فردي، دون أن يبوحوا بها لآخرين. وهذا النوع من الخرافات يختلف عن الخرافات المشتركة اجتماعياً، في أنها تخص الفرد وحده دون غيره، وقد يجد الفرد في الإفصاح عنها أو إفشائها إلى غيره ما يفقدها قيمتها وقوتها، ولعل أقرب الأمثلة للدلالة على هذا النوع ما يعتقده البعض من أرقام حظ خاصة بهم يتوصلون إليها عن طريق ممارسات خاصة. لكننا في الوقت ذاته يمكن أن نعد هذا النوع، إنما هو تطبيق لمبدأ عام معروف، وعلى ذلك قد لا يعد خرافة شخصية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنه إذا توصل إنسان إلى رقم سعه أو حظه، واعتقد صحة ذلك، دون المرور بتلك الممارسات فإن هذا يعد إنساناً نموذجياً ممثلاً للمعتقد في الخرافة تماماً.

إن الناس قد يكون لديهم ألوانهم المفضلة التي يتفاءلون بها، وأخرى يكرهونها ويتشاءمون من استخدامها، ويصدق هذا على الأيام والأماكن والأشياء. وقد يقومون بممارسات معينة لكي يؤكدوا - أو يتأكدوا من - نجاحهم في تحقيق ما يريدونه، أو دفع خطر ما يتوقعونه؛ مما ينعكس على سلوكهم، ورضاهم عن أنفسهم إذا ما كانت النتيجة إيجابية، وسخطهم إذا حدث العكس.

أذكر تجربة شخصية لي ربما كانت ذات دلالة في هذا السياق. كان عندي قلم باركر ٥١ أهدى إليّ عندما دخلت الجامعة، وظل

هذا القلم معى ما يقرب من خمسة عشر عاماً . كنت أكتب به المحاضرات وأنا طالب، وأؤدي به الامتحانات، وكتبت به رسالتى للماجستير والدكتوراه، كما كتبت به أبحاثاً شاركت بها فى مؤتمرات، وكتباً نشرتها، ووقعت به عقد زواجى . باختصار كنت أحب هذا القلم، وأشعر أن علاقة حميمة تربط بينى وبينه .. كنت أشعر أحياناً أنه صديق لى، أصبح به معى، والازمه ويلازمنى دائماً، وأبوح إليه عندما أكتب به بما يعتمل فى صدرى وعقلى، رغم أننى كنت قد امتلكت خلال هذه الفترة أقلاماً أخرى أثمن منه من ناحية القيمة المادية .. كنت أشعر أن خطى عندما أكتب به أفضل كثيراً وأجمل كثيراً، مما لو استخدمت قلماً آخر .. ثم حدث أن فقدت هذا القلم، وجن جنونى بحثاً عنه، بل أعلنت للمحيطين بى أننى سأكافئ من يجده مكافأة مجزية تتجاوز أضعاف ثمنه .. لكننى لم أجده .. فبكيت .. وأصبحت الأقلام بعد ذلك عندى سواء .. ومازلت أشعر أن خطى لم يعد كما كان جمالاً ورشاقة ..

قد يضحك البعض لهذا الذى حكيت، ويسخر من هذه التفاهة، وقد يقدر آخرون هذه التجربة، وينظرون إليها باحترام .. وهكذا الأمر تماماً عندما نحاول أن نلتمس آراء الآخرين وتجاربهم مع ما نسميه «خرافة» أو «خرافات» ..

على أية حال، إن الناس لا يمكن أن يؤمنوا أبداً بالغيبيات لو استطاعوا أن يتحكموا فى ظروفهم وفقاً لنظم أو قواعد مستقرة معروفة متفق عليها، أو لو كانوا يتمتعون دائماً بحسن الحظ، ولكن

لأنهم كثيراً ما يتعرضون لأزمات، حيث تكون النظم أو القواعد عديمة الفائدة، وحيث يتأرجحون بشكل يثير الشفقة بين الأمل والخوف بسبب عدم الثقة فى تلك النظم أو القواعد أو الحظ الذى يتمنون أن يحالفهم دائماً؛ فإنهم فى أغلب الأحيان يبدون على درجة كبيرة من السذاجة فى مواجهتهم لتلك الأزمات.

ويبدو أن هذا الافتراض قد قاد برونسلاف مالىنوفسكى، عالم الإنسان الشهير إلى أن يصوغ نظريته عن السحر التى اعتمد فيها على ملاحظته للسلوك الإنسانى.

لقد لاحظ مالىنوفسكى أن عالم الإنسان القديم يمكن أن ينقسم إلى قسمين؛ أحدهما يمكن السيطرة عليه والتحكم فيه بطريقة ما، يمكنها أن تشبع احتياجات هذا الإنسان عندما يتوافر لديه قدر كاف من المعرفة والخبرة والمهارات التى تمكنه من ذلك. أما القسم الثانى حيث تصبح الخبرات والمعارف المتاحة لهذا الإنسان غير كافية فى حد ذاتها لتضمن تحقيق أهدافه فهنا يبدأ السحر فى فرض سيطرته. ويستشهد «مالينوفسكى» بشكل متكرر بأمثلة لها علاقة بممارسة الصيد عند سكان خليج تروبرياندا، حيث قام بعمله الميدانى الأساسى، فهؤلاء الذين يعيشون على الصيد من البحيرات الداخلية، حيث الصيد سهل وآمن، لا يمارسون أية إجراءات ذات طابع سحرى مرتبط بالصيد. وعلى العكس من ذلك، فهؤلاء الذين يعيشون على الصيد من البحر المفتوح يمكن أن يحصلوا على السمك فقط فى ظروف تعتمد أساساً على

المصادفة، وهذا يوضح فكرة مالمينوفسكى الأساسية عن أن الإنسان يلجأ إلى السحر فقط عندما تكون الفرص والظروف لا يمكن التحكم فيها بالعلم والمعرفة تمامًا.

وبينما يصعب اختبار نظرية (مالمينوفسكى) بالتفصيل، هنا فإننا يجب أن نشير إلى أن النقاد ذكروا - ومعهم كل الحق - بعض الاعتراضات المهمة على استنتاجاته. ففي المقام الأول، إن تقسيم العالم قسمين أو جزأين، أو جزء يمكن التحكم فيه، وجزء آخر لا يمكن التحكم فيه، ليس أمرًا سهلاً، ولهذا فإن المرء يمكن أن يفترض أن أهالي (تروبرياندا)، بما أنهم يعيشون في جزيرة استوائية، فإن نمو المحاصيل يمكن أن يشكل شيئاً بديهيًا بالنسبة لهم، ويقع في نطاق الفئة السابقة، ولا يحتاجون أى شكل من أشكال السحر. ومع ذلك، فالحقيقة أن السحر كان يستخدم بشكل مكثف في زراعة حدائقهم. ويمكن التدليل على أن هناك سلسلة كاملة من المعتقدات الميتافيزيقية والممارسات المتعلقة بالسحر، بما فيها التي ذكرها مالمينوفسكى نفسه، والتي لا تتدرج داخل إطاره النظرى. فالسحر الأسود، والشعوذة، وبعض المظاهر الأخرى المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية تعتبر أمثلة مهمة. ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أن نظرية مالمينوفسكى زائفة ولكنها تحتاج إلى صياغة حذرة. وعلى ذلك يمكننا أن نذهب إلى أنه: عندما تكون الفرص والظروف لا يمكن السيطرة عليها سيطرة تامة بالعلم والمعرفة، فإن الإنسان يميل إلى اللجوء للسحر والخرافة.

وقد يعنى هذا أن بعض المهن التى تتسم مهامها بالمخاطرة، وعدم الثقة، والخوف، من المرجح أن يكون أصحابها أكثر عرضة للخرافات؛ كالبحارة، والجنود، والصيادين.. وغيرهم. وعلى حد علمى، فليس هناك دراسة لانتشار الخرافات بين هؤلاء الذين يمتنون مهناً مختلفة، ولكن انتشار الخرافة بين الجنود فى الحرب تم توثيقه فى دراسة بارزة عن الجندى الأمريكى خلال الحرب العالمية الثانية، فقد تم رصد عدد هائل من الممارسات المتعلقة بالخرافات التى انتشرت بين المقاتلين كارتداء حلى واقية، وأحذية وتمائم وتعاويذ.. إلخ. كما أن بعض التصرفات الأخرى التى ترتبط بسوء الحظ، مثل استخدام الثقاب الواحد لإشعال ثلاث سجائر لثلاثة أفراد تم تجنبها تماماً. وكثير من الجنود استخدموا مثل هذه الممارسات الخرافية قائلين إنه ليس هناك ضرر من استخدامها حتى لو بدت سخيفة. هناك تصرفان تم رصدهما لهما أهمية، خاصة، هما: أنهم يمكن أن ينفذوا استعدادات ما قبل المعركة عن طريق نظام طقس خاص، وأن يحتفظوا بقطع من ملابس أو أجزاء من معدات ارتبطت بتجربة ماضية لها علاقة بالهروب من الخطر.

والحقيقة أن هذا نموذج لنمط السلوك الذى يمكن التنبؤ به، والذى يعتمد على سلسلة تصرفات معينة، أو امتلاك أجزاء معينة من جسم، حدث أن كانت ذات فال حسن فى مواقف سابقة، ولذلك يتم الاحتفاظ بها بقوة قبل التعرض لمواقف خطيرة.

ويتضح أيضاً أنه فى مواقف معينة، وبخاصة فى أثناء فترات الأوبئة أو الهزائم كانت هناك ممارسات لا حصر لها للخرافات.

وحقيقة ليس من الضروري أن نركز على ذلك الافتراض الذي يؤكد بقوة على أن الخرافات تزيد في البيئة التي لا يمكن التحكم فيها. فهناك على الأقل دراسة واحدة للمشكلة نفسها تتعامل مع البحث عن طريق ما يسمى بعصا التنبؤ، فهذا سلوك قديم جداً يهدف إلى تعيين أماكن المعادن أو المياه الجوفية (الآبار) عن طريق عصا. ومن الواضح أن هذه الطريقة، التي اعتبرها كثير من العلماء خرافة، تبقى واسعة الانتشار في البلد الذي يعتبر قمة العلم والتقدم الآن، وهو الولايات المتحدة هنا فإن بعض الباحثين شعروا أن هذا الموضوع يمكن أن يعتبر موضوعاً ملائماً لبدء البحث في أصول السلوك الخرافي. وبدعوا بنظرية مالبينوفسكي - التي ذكرناها سابقاً - كنقطة بداية، وعلى هذا الأساس طوروا الفرض التالي:

إننا يمكن أن نتوقع أن نجد أن الطريقة الأمريكية في البحث عن المياه الجوفية أو تحديد أماكن حفر الآبار عن طريق عصا التنبؤ يمكن أن تكون شائعة في أي مكان تكون فيه نتائج البحث عن طريق الحفر غير مؤكدة، وعلى الجانب الآخر، فإننا لا نتوقع أن البحث عن الماء عن طريق عصا التنبؤ سوف يكون ممارساً عندما تكون ظروف الأرض والمعرفة الجيولوجية بها مباشرة بنتائج إيجابية، يمكن التكهّن بها.

من أجل اختبار هذا الفرض تم اختيار عينة ممثلة لأقاليم الولايات المتحدة وصُنِّفَتْ طبقاً لمناطق المياه الجوفية كما حددتها

المسوح الجيولوجية الأمريكية، وطبقاً لصعوبة تحديد أماكن المياه. وبعد ذلك تم الحصول على معلومات من المزارعين فى الأقاليم عن عدد الذين يستخدمون (البحث عن طريق العصا) فى تلك الأقاليم. وقد وجدوا ١٨ باحثاً عن طريق العصا لكل ١٠٠ ألف من السكان تقريباً، وتم اكتشاف أن هناك علاقة وثيقة بين صعوبة تحديد مكان الماء وبين نسبة هؤلاء الباحثين عنه باستخدام عصا التنبؤ بين السكان. وبعيداً عن ذلك أميط اللثام عن كثير من المعلومات المدهشة عن الإجراءات التى تستخدم وخصائص البحث عن الماء عن طريق عصا التنبؤ. والشئ الأساسى هنا أن الفرض تم تأكيده، وأن النتائج كانت متسقة مع النظرية التى تقول إن السحر يقوم بوظيفة مهمة، وإن هذا البحث عن طريق ما أطلق عليه عصا التنبؤ إنما هو طقس يختزل القلق بالأسلوب نفسه الذى يفعله السحر فى المجتمعات غير المتعلمة.

«ومن هنا تم استنتاج أن السحر يمكن أحياناً أن يعمل من خلال التطبيق، وأن «بعض الممارسات التى يمكن تصنيفها كسحر يمكن أن تعمل كتقنيات يستطيع من خلالها الأشخاص الذين يمارسونه - أى السحر - الوصول إلى أهدافهم».

إن عدم التيقن فى حقيقته أمر مرادف لنقص المعلومات التى تبنى عليها القرارات أو غيابها. وتلك الفكرة مرتبطة بفكرة السيطرة على البيئة والمجال، حيث إنه كلما زاد كم المعلومات لدينا، كلما زادت احتمالات قدرتنا على التعامل بشكل فعال مع بيئتنا، لذلك فإن للمعلومات قيمة إيجابية يصعب تجاهلها.

وقد تم إثبات أنه من الأفضل وجود معلومات حول النتائج التي يتم التوصل لها، سواء حوت تلك النتائج مكافأة أو عقاباً، خاصة في الموضوعات المتعلقة بالإنسان، وتم التأكيد على ذلك بالرغم من الحقيقة القائلة إن الناس لا يحصلون على أية ميزة من ورائها سوى معرفة ما سيحدث في أية حالة. وهذه النتائج في الواقع تتوافق مع خبرة الحياة اليومية. ففي خلال الانتخابات العامة، الكثير من الناس لا ينامون جزءاً كبيراً من الليل قبل معرفة نتائج الانتخابات، ويميلون إلى الاستماع إلى تنبؤات الخبراء. وهذا لا يقدم شيئاً في الحقيقة سوى تقليل مقدار الشعور بعدم الثقة عند الناس بأسرع ما يمكن، حيث إنهم يستطيعون معرفة نتائج الانتخابات في الصباح دون تعرضهم لعناء السهر وعدم النوم. إن تلك الرغبة لمعرفة ما يخبئه المجهول تساعد على اللجوء بشكل واسع إلى النبوءة والتكهن بشكل خاص في جميع المجتمعات المعروفة. والرغبة نفسها في معرفة المجهول تعترى الناس في الدول الصناعية. إن التلهف نحو معرفة قدر شخص بعينه، ما هي إلا رغبة متقدمة للمعرفة، حيث تصبح حتى معرفة الأنبياء السيئة أفضل لنسْخ من جهله بالمعلومة، وبعد فترة من الانتظار المشوب بالقلق قد تجلب الأخبار السيئة نوعاً من الارتياح؛ لأنها تحرر الشخص وتهيئه للتعامل مع الموقف، وكما جاء في دراسة أمريكية فقد وجد أن السجناء الذين لديهم فرصة لإطلاق سراحهم أكثر عرضة للتوتر من الذين ليس لديهم تلك الفرصة؛ ذلك لأنهم رَوّضوا أنفسهم على قبول تلك الحقيقة. وفي الأجواء

التي تجمع عددًا من الناس سويًا في مكان دون وجود معلومات كافية مثل معسكرات الاعتقال أو معسكرات أسرى الحرب، تسود الشائعات. وبالرغم من أن معظم تلك الشائعات غير حقيقية إلا أنها تظل باقية لمدة من الزمن مما يسبب كثيرًا من أشكال المعاناة بسبب الشك أو عدم التيقن. إن ملاحظة الناس في تلك الأحوال جنبًا إلى جنب مع النتائج التجريبية تتجه كلها إلى أن هناك اختلافات فردية كبيرة في الرضوخ لعدم اليقين والشك. ويتحمل بعض الناس ذلك برزانة وعقلانية حتى لو كان هذا يخص أمورًا تتعلق بالحياة والموت، بينما يجد البعض الآخر أن ذلك لا يمكن تحمله حتى بالنسبة لأتفه الأمور، مثل حصوله على دعوة لحفل أو مشاهدة مباراة لكرة القدم أو عدم حصوله عليها.

والحقيقة أنه ليس من السهل القطع بأن الناس جميعًا يمكن أن يطمئنوا تمامًا إذا توافرت لديهم حالة كاملة من اليقين، حتى مع وجود معلومات كاملة وقدرة عقلية على التحكم.

هذا النوع من الحالات قد يشكل نظامًا يتبعه مجموعة من القواعد الجامدة التي تضمن النجاح بشكل تلقائي، ويمكن أن يمثل عبئًا ثقيلاً لا يمكن تحمّله؛ ذلك أن هناك كثيرًا من الأدلة التي تشير إلى هذا، وربما يمكن الاستشهاد بنموذج واحد في مجال علم الجمال. فإذا كان تقديم الموضوعات يتم من خلال أشكال عشوائية تختلف في تراكيبها، فإن تلك الموضوعات لا تميل لا إلى البساطة الشديدة والوضوح ولا إلى التعقيد المبالغ فيه، مما يرسخ كما لا

بأس به من عدم اليقين على مستوى الإدراك. ولقد أظهر هذا أن الناس يتسمون بحساسية نحو الاختلافات الناتجة عن تغير الدافع، وأنهم سرعان ما يتملكهم الملل من هؤلاء الذي سرعان ما يبادرون إلى التكهّن أو التنبؤ.

إننا ندرك أن كثيراً من أنماط عدم اليقين والمخاطرة مثلما يحدث في ألعاب السيرك والمباريات الرياضية تجذب الناس بشكل إيجابي؛ لذا فإنهم ينشدونها بحق. وهكذا فإن تقليص حجم عدم التيقن ليس غاية في حد ذاته، كما أنه إذا تجاوز مستويات معينة فقد يصبح في الواقع أمراً غير مرغوب فيه بشكل كبير. فضلاً عن ذلك، هناك حالات قليلة يمكن التنبؤ بها في حياة الإنسان الذي يعيش في إطار ظروف طبيعة أكثر من التنبؤ بأحواله وهو يعيش حياة السجن الرتيبة مثلاً.

إن هناك كثيراً من الدراسات التجريبية التي ركزت على الاختلافات في المشاعر المصاحبة لعدم التيقن. وقد تم التوصل إلى عدة نتائج مهمة منها مثلاً أن المواقف الجديدة المنذرة بالخطر تكون أكثر قدرة على إثارة القلق، وأنه كلما قلت المعرفة بالنتائج المحتملة، كلما زاد القلق. كما أنه في بعض الأحوال تكون هناك نزعة لرغبة قوية للحصول على معلومات وبعض وسائل السيطرة، ومحاولة الحصول على معلومات أو التحكم في حد ذاتها تتضمن قدرًا من الشعور بالمشاركة في متابعة الأحداث، أملاً في السيطرة عليها، وذلك أفضل نفسياً بالطبع. ولا شك أن وجود قلق

بدرجة أقل كثيراً من عدم وجود أى نشاط أو وجود نشاط يترك شعوراً لدى المرء بأنه ضحية لا حول لها ولا قوة أمام أحداث لا يمكن تجنبها.

إن المرء يصطدم، بشكل حتمى، بحقيقة مدى ملائمة الخرافة هنا، حيث إن الخرافة تمنحه شعوراً ذاتياً بالقدره على التنبؤ والسيطرة. وهكذا، قد يساعد ذلك على تخفيف حدة القلق، وحيث إن القلق الشديد عرضة لأن يكبح جماح العمل الفعال فى المواقف الخطرة، فإن هناك احتمالاً آخر أن تكون للخرافة، فى أحوال معينة، قيمة إيجابية باقية. وإذا كان هذا صحيحاً، فإنه يساهم فى أن نستوعب السبب فى أن فئات معينة من الناس (البحارة، والطيارين، والممثلين)، ممن يتعرضون لمخاطر جسدية جمة أو لمصاعب مهنية، يمكن أن يكونوا أكثر الناس إيماناً بالخرافات من غيرهم الذين لا يتعرضون لمثل تلك المخاطر. وبالرغم من أننا لا نعرف بعد شيئاً عن تلك المشكلة، إلا أنه يبدو أن المرء يجب أن يفكر فى إطار مجموعة من التفاعلات المركبة بين مستويات من عدم التيقن والمخاطرة، وبين السمات المميزة للفرد فى المواقف المختلفة. إن الرجل الذى ينفل انفعالاً معقولاً لا يحتاج للخرافة، لكن مدمن القمار الذى يراهن بمبالغ كبيرة، والذى يتعرض لانفعالات كثيرة متباعدة ومتفاوتة فى درجتها يكون دون شك أكثر اعتقاداً فى الخرافات، وهو ما جسده (دوستوفسكى)، ببراعة وصدق، فى روايته: «المقامر».

وربما لا يكون هذا نموذجًا جيدًا؛ لأن خرافة دوستوفسكى (أو «سره» كما أسماها) هي أنه إذا لم يقلق المرء عند لعبه القمار، فمن المؤكد أنه سيربح. إن تلك الصيغة السحرية التي تشمل القلق على أنه أحد مكوناتها هي في واقع الأمر هزيمة ذاتية؛ إذ إن خسارته المتواصلة الكبيرة تجعله يفقد إيمانه، فإذا استطاع المحافظة على رباطة جأشه، فإنه دون أدنى شك سيتغلب على حظه العاثر ويربح في لعب القمار.

وهناك فكرة عامة شائعة ومتعلقة بالقمار؛ ألا وهي فكرة «الحظ». إن بعض الناس لديهم نزعة معينة لجلب الحظ، ويبدو كما لو أنهم ولدوا «تحت نجم الحظ»، فإذا كان هذا التعبير المبتذل جائز ومباح، نجد أن البعض الآخر من الناس يمانون ويصفه مستمرة من الحظ العاثر ويبدو أن بعض الناس يجلبون الحظ الحسن، والبعض الآخر لا يفعل شيئاً إزاء ما يواجهه ولا يستطيع تحقيق أى شيء سوى الفشل.. وهنا ربما نكون في مواجهة عميقة وأساسية جداً بين الإنسان وبيئته.

وربما يكون من السابق لأوانه أن ننبد فكرة «الحظ» الذي يرتبط بأشخاص معينين، لكن الخرافة هي مفهوم نسبي، يعتمد على وضع المعلومة العلمية في وقت معين.

إن معتقدات الإنسان القديم وتصوراته عن المعجزات والنذر بالخير أو النحس والحظ والكهانة والمصائب كانت تحجب . بشكل تام . الأحداث الطبيعية التي امتزجت بها . ولكن كلما اقتربنا من

عصور التتوير، فإننا سنرى أنه لا يوجد شيء غامض أو خارق للطبيعة على النحو الذى تصوره السابقون، وأن كل الأشياء تتبع من النزعة الطبيعية العادية للجنس البشرى نحو التساؤل والتعجب، وأنه بالرغم من أن تلك النزعة قد تواجه فى بعض الفترات بالاستهزاء أو الاستكار، إلا أنه لا يمكن أبداً اقتلاعها من الطبيعة البشرية.

وحيث يشكل الاعتقاد فى الخرافات جزءاً مكماً لطريقة الناس فى النظر إلى الأشياء فى العالم، فإنه يكاد يكون كل فرد يعتقد فى كل شيء تقريباً. وهذا راجع. فى الحقيقة. إلى أن البدائل غير مهياة لإقناع الأفراد بغير ما يعتقدون.

ومع هذا فإن مثل تلك الأمور تصبح نادرة بشكل متزايد اليوم، على الرغم من وجود بعض المجتمعات التى لم تمسها التأثيرات الخارجية من مجتمعات أخرى قطعت شوطاً كبيراً فى اتجاه التعقيل.

إن بعض الناس يأخذ الخرافات مأخذ الجد، بينما يتندر عليها الآخرون، والبعض يدعى بأنه له خبرة بالقوى الخفية، والبعض الآخر يشكك فى الأمر كله. وأحسب أن كل فرد لديه خرافاته الشخصية «المخادعة»، سواء أكان الناس مهيين لقبول تلك الخرافات أم لا. وتعتبر الاختلافات حول صدق الخرافات وأنماط السلوك المترتبة على ذلك من أهم العناصر المؤثرة فى هذا الصدد. ولذلك ففى التحليل الفرويدى يمكن للمرء أن يتوقع أن

المصابين بأمراض عصابية معينة هم أكثر إيماناً بالخرافات من غيرهم. وهناك ما يؤيد تلك الدراسات التي أجريت خلال الثلاثينيات من القرن العشرين إذ كان ينظر إلى الاعتقاد في «الخرافات» على أنه سمة شخصية. بالرغم من أن كثيرين كانوا يسخرون من مثل هذه الدراسة، إلا أنها أظهرت أن علم التنجيم قد يفسر الكثير من الأشياء.

ومن أكثر المصادفات تزامناً حدوث زلزال في اليابان يوم السابع من ديسمبر ١٩٤٤ وهو نفس يوم معركة بيرل هاربور.

ولقد وُجد أن الذين يتعرضون للإجحاف أو الظلم الشديد هم أنفسهم أكثر نزوعاً نحو تصديق الخرافات الذي يبدو واضحاً في قبولهم الاستبداد والإيمان بأن أقدارهم في أيدي قوى خارجية مجهولة تتحكم فيها قوة خارج سيطرة البشر.

وفي واقع الأمر يجب أن نكون حذرين من أن نفرط في الاستنتاجات. إن خلفيات الاستبداد والتحكم هي التي تعبد الطريق أمام قبول الخرافة. وهنا ينبغي أن نذكر حقيقة غاية في الأهمية وهي أن أغلبية الذين تعرضوا للإجحاف الشديد هم في الأغلب الأعم من الطبقة الاجتماعية الدنيا وهي الطبقة التي لم تحصل إلا على قسط متدنٍ من التعليم إضافة إلى أن مستوى معيشتهم منخفض.

ولقد أجريت دراسات حديثة لتقييم الحد الذي يشعر فيه الأفراد أنفسهم أنهم أسياء مصائرهم أو أنهم مجرد دُمى في

خيوط غير مرئية، وتبين أن الطبقات الاجتماعية الدنيا تتجه نحو النوع الأخير، فهل يعنى هذا أنهم أكثر إيماناً بالخرافات؟

إن الخرافة بهذا المفهوم تصبح مجرد وسيلة للبقاء فى مجتمعنا الذى نعيش فيه. ونظراً لأن أبناء الطبقات الدنيا أقل تعليماً فإنهم يتمسكون بها لوقت أطول، وهناك أنماط معينة من السلوك التى كان يمكن النظر إليها فى وقت سابق على أنها خرافة قد فقدت مفزاها الغيبى ولم تعد الآن إلا كونها مجرد حكايات أو إشارات أو أقوال لا معنى لها. والمثال على ذلك تسميت الشخص الذى عطس بأن نقول له «يرحمكم الله». وفى الأصل كان هناك شعور بضرورة القيام بهذا؛ نظراً لأنه كان يعتقد بأن الروح قد غادرت الجسد مؤقتاً، وأن التسميت بقول «يرحمكم الله» للعاطس يساعد على التأكد من عودتها إلى مقرها الصحيح. فالمضمون، أى الخبرة الخرافية التى صاحبت الفعل فى وقت ما من الأوقات قد زال ولم يعد له وجود الآن. وهكذا يصبح السلوك فعلاً غير مباشر تماماً، حيث يؤدى التحول والتقدم المتواصل نحو تعقيل الحياة فى نهاية الأمر إلى القضاء على جزء ما من الخرافة وفى المستقبل ربما يسلبها الحياة بشكل مطرد.

والاختلاف الأكبر بين التفكير العلمى والأنواع الأخرى للتفكير. التى تتوارى بعيداً عن الإدراك فى الخرافة. لا يتمثل فى النسيج الأولى للأنماط ولكن فى الالتزام الذى تفرضه الروح العلمية للتحقق من النتائج الفكرية بواسطة مناهج راسخة تربط بينها

وبين الظواهر التجريبية. وهذا يعنى أن العالم عادة ما يحاول تجاوز حدود مجرد اكتشاف علاقة تربط بين ظاهرتين فيسمى أيضاً إلى توضيح العمليات المتخللة التى تتوسط بين السابق واللاحق. وقد تحقق هذا بأقصى درجة من النجاح فى العلوم الطبيعية ثم فى العلوم البيولوجية.

والبحث عن التركيب والانتظام والمعنى خاصة عامة لعمليات التفكير الإنسانى. وهو أحد أساليبنا الرئيسية للتكيف مع العالم المتغير دائماً أبداً. وبالطبع فهذا لا يعنى بالضرورة أنه يكون عملياً ومفيداً دائماً، بل على العكس أود أن أشير إلى أن الخرافة فى أحد جوانبها تكون جزءاً من الثمن الذى ندفعه، وهى نتاج ثانوى حتمى للبحث الدائم عن الأنماط التى نشترك فيها. وبعيداً عن هذا توجد طرق أخرى يمكن النظر من خلالها إلى الخرافة من منظور تطورى. وقد أوضح أحد علماء الوراثة أنه إذا كانت العرافة تؤيد معياراً اجتماعياً نافعاً لجماعة إنسانية فقد يكون للخرافة قيمة البقاء الإيجابى.

إن كافة هذه الظواهر (أقصد بذلك الطقوس السحرية بأنواعها المختلفة) مرتبطة ببعضها البعض، ولها أصل مشترك فى آلية السلوك ذى الوظيفة الواضحة للمحافظة على النوع، وبالنسبة لكائن حى يفتقر إلى القدرة على تبصر العلاقة بين الأسباب والنتائج لابد أن يكون من المفيد للغاية التمسك بالأنماط السلوكى الذى أثبت ذات مرة أو عدة مرات أنه يحقق الهدف المرجو منه

بصورة آمنة. وإذا لم يكن المرء يعلم أيًا من التفاصيل الخاصة بالأداء ككل يكون أساسياً وجوهرياً لنجاحه بشكل آمن فمن الأفضل له التمسك بها جميعاً بكل دقة. فأنت لن تعرف أبداً ما قد يحدث إذا لم تكن أساساً تعرف.

وأخيراً ففى المواقف التى يكتنفها الخطر أو الكرب الشديد، والتى تتطوى عادة على شك زائد فمن المحتمل أن تأتى الخرافة تحديداً فى المقدمة. وقد يمثل هذا ارتداداً بدرجة ما إلى المزيد من المواقف الشعورية الطفولية كما وصفها (فرويد) أو قلب للأفكار والمعتقدات التى تم اكتسابها خلال التعليم الشعورى المبكر، والتى تظل كامنة فى الظروف العادية. ومن ناحية أخرى فكما أشرنا بالفعل فقد تقوم الخرافة فى الوقت ذاته بالوظيفة الإيجابية لإعطاء الشخص إحساساً بامتلاك بعض السيطرة على الأقل، ورغم أن هذا شيء وهمى فقد يساعد على حفظ تكامل الشخصية واستقامتها. وغالباً ما ورد ذكر مثل هذه الظواهر فى مواقف الأزمات. وعلى سبيل المثال، فعندما وقعت ثورة بركانية فى هاواى فى عام ١٩٥٥م شارك المواطنون ذوو التعليم العالى والبارزون فى إلقاء القرابين لآلهة البراكين فى تيار الحمم البركانية. ومن بين التقلبات التى تشهدها حياة الإنسان وتتوافر فيها كافة المقومات المؤدية إلى الخرافة المرض، وغالباً ما يصيب المرء فجأة ودون سابق إنذار، ولم يكن هذا مفهوماً بشكل كبير فى الماضى، وغالباً ما ينطوى المرض على توتر شعورى. ولذا فليس بمستغرب أن تكون المعتقدات والممارسات الخرافية فى كل مكان

سائدة فى هذا المجال بشكل خاص، وينطبق هذا على المجتمعات الصناعية الحديثة فيما يتعلق بالاضطرابات غير القابلة للعلاج بسهولة. ويفتح غموض الأمراض الطارئة والمستعصية الباب أمام كافة أنواع «العلاج» اللاعقلانية والخادعة فى أغلب الأحيان، والتي يجد فى أثرها أولئك الذى يبدو أنهم لم يؤمنوا بالخرافات مطلقاً قبل أن يصابوا بالمرض. وفى الظروف المناسبة كما هو الحال بالنسبة لمعظمنا على الأرجح بفقد زهونا بعقلانيتنا نكون عرضة للخضوع والاستسلام.

والفكرة الرئيسية للفرضية التى بين أيدينا الآن هى أن الخرافة بعيداً عن كونها شيئاً غريباً وغير عادى، كما يُنظر إليها فى أغلب الأحيان، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأساليبنا الأساسية فى التفكير والشعور والاستجابة لبيئتنا بشكل عام. والموقف (المستدير) الحالى تجاه الخرافة والذى يرمى ظاهرياً إلى تبين زوالها الوشيك بمساعدة التعليم، له جذوره فى التفاؤل الفكرى الذى ظهر فى القرن التاسع عشر.

- Sir E.B. Taylor, The Organs of Culture, London, 1971.
- Lucien Leery - Pruhl, How Natives Think, Allene 1926.
- E. E. Evans Pritchard, Witchcraft, Oracles, and Magic among the Azande, Oxford: Clarendon Press, 1937.
- Jean Piaget, the Child's Conception of the World, Kegan and Paul, 1929.
- C. G. Jung and W. Pauli the Interpretation of Nature and the Psyche, Kegan Paul, 1955.
- Richard L. Taylor, Habitual Short-Term Expectancies and Luck, Journal of General Psychology, 1963.
- Rubin Horton, African Traditional thought and western-science, Africa 1967, 37.
- Sigmund Freud, Collected Works, (Vol VI) Hogarth Press 1960.



جمل الصيف بيتعارك مع جمل الشتاء» كان هذا التفسير مقنعاً تماماً لى، فأننا أعرف الجمل، وكنا نمتلك جملاً، يعيش مع بقية الحيوانات فى حظيرة ملحقة بالبيت، لكنه كان مميزاً بمكان منفصل، وكان أبى لأمر ما يحترم هذا الجمل جداً، ويطلب من المكلف به أن يعامله معاملة خاصة. على أية حال نشأت فى بيئة تعرف الجمل، وتحفظ كثيراً من الحكايات التى تدور حوله، وتروى عنه أحداثاً هو بطلها أو صانعها، كما رأيت غاضباً مزمجراً «يضرب بالقلعة حسب التعبير الشعبى» كما كان من السهل على آنذاك أن أعقد مقارنة بين جملنا وجملى الصيف والشتاء، وبين صوت جملنا فى حالة الغضب، وصوت جملى الصيف والشتاء فى موقف مشابه قريباً أو بعداً، ومما لا شك فيه أن أصوات الجمال فى حالة العراك إذا ضخمت يمكن بشكل أو بآخر أن تتشابه جزئياً مع صوت الرعد أو هكذا بدا الأمر لى.

وفى كثير من المجتمعات المعاصرة يحظى بالاحترام أناس يشاع عنهم أنهم قادرون على التنبؤ، أو تفسير ما غمض على الناس من أمرهم سواء جاء هذا فى شكل حلم أو حادث غريب غير متوقع، وقد يقصدهم البعض من أجل التماس البركة، أو النصح إذا كانوا يبنون الزواج، أو بدء مشروع تجارى أو سفر.. إلخ.

والحقيقة أن هناك أشخاصاً يمكن وصفهم بأنهم منقوعون حتى ذقونهم فى كل أنواع الخرافة لا يخطون خطوة، ولا يبرمون أمراً إلا إذا أيدتهم النجوم، أو قراءة الطالع، أو بركة أحد الشيوخ، ويمكننا ببساطة أن ندين هؤلاء، وأن نتندر عليهم أو منهم، وقد نجد فى

سيطرة الخرافات وانتشارها :

الحقيقة أنه يتراءى للناس كثير من الظواهر الطبيعية التي يجهلون حقيقتها وأسبابها؛ ومن ثم لا يستطيعون تحليلها أو معرفة أبعادها، ويلجئون من أجل راحة عقولهم، وتهدئة نفوسهم إلى البحث عن سبب يتناسب مع محيطهم الاجتماعي، ومستواهم الثقافي، يبررون به تلك الظواهر الغريبة أو غير المفهومة لهم.

أذكر أنني وأنا طفل مازلت أعيش مع والدي في القرية انتابني خوف شديد عندما سمعت الرعد ورأيت البرق لأول مرة، وأنني جريت إلى أبي أسأله عن هذا الذي يحدث، ملتمسًا منه الحماية، وأذكر أن أبي ابتسم ابتسامة الواثق الذي يعرف، وقال: «دا يا بني

مثل هذا السلوك نوعاً من الترفيه عن أنفسنا، والمتعة التي نستشعرها من تبادل الحكى عن ذلك الذى نعدده خرافات، أو تفكيراً معوجاً، وقد ننوح ونتحسر أن يصل أناس يعيشون فى هذا العصر مازالوا يفكرون أو يتصرفون على هذا النحو إلى هذه الدرجة من القصور والتخلف؛ مما يعنى أننا نفترض أننا مختلفون عنهم، وأنها قد تركنا كل ذلك وراءنا. لكن يظل السؤال، وهل أصبحنا عقلانيين متورين كما نعتقد أو كما نحب أن نعتقد؟ إن الإجابة ليست سهلة كما نظن؛ أولاً، بسبب الصعوبات التى واجهتنا وتواجهنا فى تقرير ما الذى نعدده خرافة حقيقية. وثانياً، لأن الأدلة والشواهد الممثلة التطبيقية نادرة إلى حد كبير؛ ذلك أن معظم المعلومات المتوفرة لدينا تتعلق بالخرافات المشتركة اجتماعياً، والخبرات السحرية المزعومة. ولعلنا نضرب هنا مثلاً ببعض الخرافات ذات التأثير على السلوك العلنى لملايين من الناس يؤمنون بها. ومن بين هذه الخرافات الأكبر قوة فى تأثيرها ما يحيط بالرقم ١٣ فى كثير من الثقافات، وما يرتبط به من ممارسات وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، لكن لا بأس من تكرار الإشارة إليها؛ نظراً لعالميتها. سنجد أن البعض يتجنب دعوة ثلاثة عشر مذعوراً إلى بيته، وأن بعض الفنادق الأمريكية تحذف الدور الثالث عشر؛ ومن ثم فالدور الرابع عشر يأتى فوق الثانى عشر مباشرة، وبذلك يتجنبون النحس الذى يتوقعونه مرتبطاً بالرقم ١٣.

وهناك إشارات نستخدمها، وتصرفات نقوم بها، ترتبط بخبرة الحياة اليومية فى مجتمعاتنا، مثل لمس الخشب الذى يقوم به

البعض عندما يتحدثون أو يتحدث آخرون عن حظهم السعيد، أو رفع اليد وفرد أصابعها في وجه من يتحدث عن شيء طيب أو حظ سعيد ناله الذي يفعل ذلك، وقول عبارة «بكرة خميس» (غداً الخميس) سواء أكان الخميس غداً أم لم يكن، أو قول «خمسة وخميسة» لدرء الحسد أو النحس.

إن خبرتي الشخصية التي أعرف أن آخرين كثيرين قد مروا بها، أنه إذا اجتمعت مجموعة من الناس في مجتمعنا، وبدعوا يتحدثون في موضوعات تتصل بالظواهر الغريبة، فإن الفرص تكون مفتوحة على مصراعها للحكى عن ظواهر التنجيم والحسد والسحر التي يزعم حدوثها، سواء لهم أو لأقاربهم أو أصدقائهم. ومثل هذه الحكايات تتسع لكى تحتوى الكثير مما نعدّه خرافياً، بدءاً من الهواجس الغامضة من أشياء غير محسوسة، وانتهاءً بالأشباح والعماريات، والأحداث التى ينتجها الحسد أو السحر. ويشكل كل هذا فى حقيقة الأمر من وجهة نظرنا الخلفية الواسعة المجهولة لانتشار مثل هذه المعتقدات التى تظهر فقط فى مثل هذه المناسبات الخاصة، وهذه الحكايات الشخصية عن تجارب حقيقية أو مزعومة. والمثير للانتباه، وربما للدهشة فى الوقت ذاته، أن مثل هذه المعتقدات تتلقى دعماً هائلاً غالباً ما يأتى دون ترتيب مسبق، من أفراد ذوى مكانة عالية، اجتماعياً، وعلمياً، واقتصادياً، فى أحيان كثيرة.

ومادمنّا نتحدث عما يثير الانتباه والدهشة مما يتصل بما نحن بصدد الحديث عنه، إضافة إلى ما سبق، أنه فى عصر الكمبيوتر،

وغزو الفضاء، والإنترنت، والفمتوثانية، تتمتع ظواهر مثل التتجيم، والعرافة، وممارسات درء الحسد، ومواجهة السحر بازدهار ونمو كبيرين، بل أصبح هناك اعتراف اجتماعي بالمنجمين والعرافين وقارئ الطالع، ومتابعة عادية لبعض الصحف ومحطات التلفزيون الأوروبية والأمريكية. وهو ما أتيج لنا. تكشف عن عدد لا بأس به من الإعلانات عن منجمين وعرافين، بالإضافة إلى ما تنشره الصحف، وتقدمه التلفزيونات من تحقيقات مصورة، أو حكايات وحوادث تشكل أيضاً خلفية مهمة، وأرضاً خصبة لتأكيد مثل هذه المعتقدات. ولا نستطيع أن نتجاهل هنا تأثير آلاف الكتب التي تتناول هذه الأمور، والتي يقبل على شرائها الملايين؛ مما جعل تجارة كتابة الأحجية والتمائم ثقل أهميتها، بالقياس إلى عائد مثل هذا النوع من الكتب وما تدره الاستشارات الخاصة من مكاسب.

والآن هل يمكن أن نعد الخرافة خطأ أو انحرافاً في التفكير؟ الحقيقة أنها نظام فلسفي أصيل توصل إليه العقل الإنساني عن طريق عمليات معقدة يمكن لنا أن ندركها، وأن نفهم جوانبها المتعددة؛ ذلك أنها تستند إلى أساس موجود، وعميق الجذور في حياة الإنسان. ولكن مع اعترافنا أنها نظام فلسفي، إلا أنه نظام خادع ومضلل.

لقد اتضح لنا أنه من المستحيل أن نقسم الناس إلى مؤمنين بالخرافة، وآخرين عقلانيين تماماً، إذ الأصح أنه يمكننا تقسيمهم إلى أناس يعتقدون إلى حد كبير في الخرافة، وآخرين يعتقدون،

ولكن بدرجة أقل، فيها، وهذا ما نستطيع استنتاجه من معرفتنا بالتاريخ. فالمزاج الفكرى للقرن التاسع عشر فى أوروبا مثلاً كان عقلانيًا، انعكس فى الإيمان بقدرة العقل الإنسانى على أن يحدث تقدمًا منتظمًا قائمًا على الوصف والتحليل، كما فى الشرح المسهب الذى قدمه داروين عن أن الجنس البشرى يتكيف بشكل تتأغم مع نظام واسع للطبيعة. لكننا أيضًا لا يجب أن ننسى أنه كان هناك جانب آخر؛ ذلك أن هذا القرن نفسه قد شهد نموًا ملحوظًا بين العامة للاعتقاد فى القوى الخفية، وإمكان إخضاعها للسيطرة البشرية، ولم يكن الأمر محصورًا فقط بين العامة وغير المتعلمين؛ ذلك أن عالمًا مثل ألفريد راسل والاس الذى اكتشف بالمصادفة نظرية الاختيار الطبيعى، كان مؤمنًا متحمسًا للأعاجيب التى كان يعتقد أن الوسطاء الذين يزعمون أنهم همزة وصل بين عالمنا، وعالم الأرواح، يقومون بها أو يقدمونها، وأنه ألف كتابًا عن ذلك، وهو ما وبخه عليه إنجلز بعد ذلك.

على أية حال، من الواضح أن بقايا خرافية كثيرة لازالت حية فى سلوك الإنسان، استمرت معه منذ أحقاب سحيقة إلى الآن.

لقد ورث الإنسان المعاصر عن سلفه القديم بعض المبادئ التى مازالت قادرة من وجهة نظره على مساعدته على فهم الكون، وتفسير ما يحيط به من ظواهر. ومن أهم هذه المبادئ ما أطلق عليه إدوارد تايلور E. Taylor، «الأنيمية» Animism، أى حيوية الطبيعة أو النزعة إلى إسباغ الحياة الشخصية على كل مظاهر

الطبيعة. ولعلنا هنا مطالبون بنوع من التوضيح لآراء بعض العلماء الذين تخصصوا في دراسة الإنسان وتطوره الفكري الذي رأوا أنه يمكن تقسيم المراحل التي مر بها إلى ثلاث مراحل، وذلك قبل أن نشير بقدر من التفصيل إلى ما تعنيه الأنيمية وأهميتها بالنسبة لموضوعنا، إضافة لما سبق أن ذكرناه.

أولاً: مرحلة الحركة الذاتية «Self - action»: وتتميز بمحاولة الإنسان تفسير كل ظاهرة من ظواهر الكون بمعزل عن غيرها من الظواهر. فلم يكن الإنسان في تلك المرحلة قد أدرك ما بين ظواهر الكون جميعاً من علاقات. وقد أدى هذا الموقف بالإنسان إلى افتراض وجود قوى غيبية في كل الأشياء، وفي كل ظاهرة طبيعية تحركها وتفسر سلوكها، وقد أطلق علم الأجناس البشرية (الأنثروبولوجي) على هذه المرحلة اسم المرحلة الأنيمية (Animistic Stage).

ثانياً: مرحلة التفاعل «Interaction»، في هذه المرحلة كان قد تجمع لدى الإنسان قدر هائل من المعلومات والمعارف التي وجهت نظره إلى ما بين الأشياء في الكون من علاقات، وبدأ الإنسان ينظر إلى الطبيعة على أنها تتضمن عدداً هائلاً غير محدود من الجزئيات دائبة الحركة، وأنها يؤثر بعضها في البعض الآخر على الدوام؛ مما يؤدي إلى حدوث الظواهر التي تقع تحت حس الإنسان وفي محيط خبراته.

وقد أدت هذه النظرة بالإنسان إلى أن يتبع المنهج التحليلي في دراسة الطبيعة وما فيها من أشياء. وقوام المنهج التحليلي هو محاولة التعرف على الجزئيات التي يتكون منها الشيء أو الظاهرة، فإذا تمت دراسة تلك الجزئيات أمكنه بعد ذلك تحديد التفاعل بينها ونتائجه.

ثالثاً: مرحلة الفاعلية « Transaction » : وفي هذه المرحلة بدأ الإنسان يرى في الكون وحدة متكاملة. وبدأ يدرك استحالة تحديد صفات أى جزء (أو جزئى) فى الكون بمعزل عن الوسط المحيط به. فى ضوء هذه النظرية لم يعد ممكناً أن يرى الإنسان أو أن يتعامل مع شيء ما فى ذاته، ولا يمكن دراسة صفات الأشياء أو الجزئيات أولاً لتحديد ما يحدث بينها من تفاعل بعد ذلك، فإن صفات الأشياء أو الجزئيات تتحدد بنوع التفاعل الذى تعمل فيه وليس العكس. هذه النظرة اتخذت صيغة محدودة فى علم الطبيعة على يد أينشتين، وأصبحت تعرف باسم النظرية النسبية. وينبغى هنا أن نتذكر أن تقسيم مراحل تطور التفكير الإنسانى بهذه الصورة أو بأية صورة أخرى غيرها لا يقصد به اعتبار هذه المراحل منفصلة بعضها عن البعض الآخر، أو أن قيام مرحلة من المراحل يعنى انتهاء المرحلة السابقة لها تماماً، فالواقع أن المرحلة الأولى مثلاً مازالت قائمة حتى اليوم عند بعض المجتمعات الإنسانية المختلفة؛ بل إنها مازالت قائمة فى بعض جوانب الحياة فى أكثر المجتمعات الإنسانية تقدماً، ومن الممكن إرجاع كثير من البقايا والرواسب الخرافية فى المجتمعات الحديثة

ويقوم مفهوم الأنيمية على أن الإنسان عامة يميل إلى تصور العالم الخارجى على نحو شبيه بتصوره لذاته، وأن الإنسان القديم كان يعتقد فى تقمص الأرواح كل قوى الطبيعة، ومظاهر الكون المختلفة إلى حد أنه تصور هذه الظواهر والقوى كما لو كانت كائنات إنسانية لها ذاتيتها وكيانها الفردى، فكل ما فى الكون من ظواهر أو مواد تعد عنده كائنات حية؛ ذات خصائص إنسانية مثله تماماً، فالأرواح تملأ كل شيء، وتسكن فى كل شيء بما فى ذلك الأشياء التى نعدّها نحن جمادات، وعلى ذلك تصور أنها لها مظهرها المادى التى تبدو عليه، وأن هناك روحاً تسكن هذا الكيان المادى وتسيره وفق إرادتها، كما أن هذه الروح أو الأرواح تمنح جميع خصائصها ومقوماتها الذاتية لتلك الأشياء المادية. إنها تحس وتتفعل وتتباعد وتتقارب، وتحب وتكره، وتغضب وتسعد، وتتعاطف وتقسو. وقد كان ذلك فى الحقيقة أمراً طبيعياً آنذاك؛ لأن الإنسان - ولعله فى بعض مظاهر سلوكه وتفكيره ~~يفعل الشيء~~ نفسه إلى الآن - يميل إلى أن يفهم العالم المحيط به فى ضوء الحالات والمواقف التى يمر بها، وأن يعكس خبراته ومشاعره على الأشياء من حوله، ومن ثم يصبح لكل فعل أو حدث فى الطبيعة هدف قياساً على أفعاله هو، والأحداث التى تمر به. فأنما مثلاً - أكتب هذا الكتاب لا لأضعه فى درج المكتب، وإنما ليقرأه قارئ، وأعددت رسالتى للماجستير والدكتوراه؛ لكى أصبح عضو هيئة التدريس فى الجامعة، هكذا.. فإذا نقلنا هذا الأسلوب فى التفكير

إلى الطبيعة، يصبح المرض إذا أصاب الإنسان عقاباً فردياً على إثم ارتكبه. أما إذا انتشر كوباء فإنه يصبح عقاباً جماعياً للمجتمع لأسباب كثيرة، وتصبح الكوارث والنكبات والهزائم أيضاً عقاباً جماعياً للمجتمع على أنهم ارتكبوا محرماً أو محرمات، وتراشاً حافل بكثير من الأمثلة على ذلك.

لقد كان الإنسان القديم ينسب إلى الظواهر الكونية والكائنات المختلفة القدرات والنوازع والانفعالات نفسها الموجودة عنده، بل إنه كان يتصور أن العلاقة بينه وبين هذه الظواهر، والكائنات، وبينها وبين بعضها البعض تسير على نمط العلاقات القائمة بين البشر أنفسهم، والسؤال هنا، هل يختلف هذا الإنسان القديم (أو البدائي وفقاً لتايلور) عن الإنسان المعاصر من هذه الزاوية؟ إنني أظن أننا لم نختلف كثيراً؛ فمن منا لم يلعن الأوتوبيس مثلاً؛ لأنه تأخر، ومن منا لم يسب الامتحان لأن الأسئلة جاءت صعبة، ومن منا لن يتحدث إلى الأشياء التي يستخدمها معبراً عن سخطه عليها أو رضاه عنها، أو سعادته بهاء أو غضبه منها.. أو لم يخیل إليه أن يتبادل حواراً مع القمر أو الشمس أو الأزهار والورود أو لم يفعل ذلك فعلاً... نستطيع القول إذاً إن هناك نوعاً من المماثلة رأها الإنسان بينه وبين الأشياء والظواهر التي تملأ هذا الكون، سلوكاً وأحاسيس، ومشاعر.. إلخ.. وهو ما دفع تايلور إلى القول إن الإنسان القديم (البدائي) حاول تفسير أحداث الطبيعة وتغيراتها على أنها ناتجة عن تمتع هذه الطبيعة بحياة شبيهة بحياة الإنسان العاقل الذي يرقب الطبيعة ذاتها.

وإن هذا التفسير لم يكن إلا جزءاً من عملية ذهنية أعم وأوسع مدى، وإن هذه العملية هي التي أدت إلى اكتشاف تلك النظرية الكبرى. نظرية المماثلة. التي أفادت كثيراً في تفهم العالم المحيط بنا.

وكلما كانت الظاهرة التي يعترينا التغيير مهمة في حياة الإنسان، وكلما اشتد الاختلاف بين الظواهر البيئية وتوقعات الإنسان منها نتيجة خبراته الماضية، زاد اهتمامه بها وبالوصول إلى تفسير لها، إننا - في الحقيقة - نمارس أعمالنا، ونسلك في حياتنا وفق خبرات مكتسبة من تجاربنا الماضية، ولعل أبرز هذه الخبرات اكتشاف أن الكون الذي ننتمي إليه، ونعيش داخل حدوده، يقوم على الانتظام والاستمرار، وعلى ذلك يمكن لنا أن نتنبأ - إلى حد كبير - بالتغيرات التي قد تحدث فيه، فإذا اختلت المماثلة أو التطابق بين ما نمر به، ونشاهده، وبين توقعاتنا أصابنا القلق واعترتنا الحيرة، وأصبح علينا أن نحاول تفسير ما لم نكن نتوقعه أو ما سبق لنا التنبؤ به، وما استجد على خبراتنا، وحينئذ قد نلجأ إلى التفسير الخرافي الذي يخرجنا من حالة القلق التي أصابتنا والحيرة التي بددت طمأنينتنا، وصولاً إلى حالة من الراحة والشعور بالأمان، إننا نعلم أن النظام الطبيعي للكون يشير أو يدل على استقراره وثباته، ولذا كان من الضروري المحافظة عليه بشتى الوسائل؛ ذلك أنه إنما يقوم من أجل الإنسان نفسه، كما أنه يرتبط بحياته ونشاطه، واستمراره، ومن هنا قد يتصور الإنسان أنه قادر على التحكم في هذا النظام، خاصة إذا عجز عن استيعاب

التغيرات التى قد تحدث، أو تفسيرها فى إطار الانتظام والثبات اللذين يتصف بهما، وذلك باستخدام طرق كثيرة كالسحر أو الاستعانة بقوى خفية يخضعها لإرادته، ويوجهها لتحقيق ما يريده.

والإنسان العادى . كما ذكرنا من قبل . يتصور كل شىء فى العالم الذى يحيط به مفعماً بالحياة مليئاً بالأرواح التى تحيا فى كل شىء وتتقمص كل شىء إلا أنه يشعر . فى الوقت ذاته . بأن له كيانه، ووجوده المستقلين تماماً عن تلك الأشياء، وأنه بذلك قادر على إدراك مكانه الخاص فى هذا العالم، وفهم حاجاته ورغباته، لكنه فى الوقت ذاته يدرك أنه قد لا يستجيب له بشكل منتظم، كما أن هناك ثغرات وفجوات كثيرة عليه أن يملأها بشكل ما، إذا أراد أن يوفر لنفسه حياة آمنة طيبة. وعلى ذلك فربما اضطر . فى أحيان كثيرة . من أجل سدّ هذه الفجوات أن يقف موقف التحدى إزاء هذا العالم وما يحفل به من ظواهر غير مفهومة، وقوى خفية لا يدرك كنهها على وجه اليقين ويشعر بجبروتها وسيطرتها، لكنه مع ذلك لا يكف عن السعى للتغلب عليها، ولا يتوقف عن محاولاته لإخضاعها لإرادته، وبذل الجهد للتحكم فيها بما يتفق مع مصالحه، وحاجاته. وهو فى سعيه هذا وفى محاولاته تلك، يظل محكوماً بالضرورة بما استطاع عقله أن يعيه مما يحيط به ظواهر، وما استطاع أن ينتصر عليه من عقبات، ومن ثم كان عليه أن يصيب مرات وأن يخطئ مرات، وأن ينجح مرات ويفشل مرات، وقد حاول تايلور تفسير الخطأ الذى عدّه أساساً للخرافة فنسبه إلى الفباء والرغبة فى المحافظة غير العملية على الذات.

وقد أكمل عالم الإنسان الشهير «جيمس فريزر» الذى ينتمى إلى الحقبة نفسها التى شهدت أبحاث تايلور، الفرض نفسه على نحو ما. لقد لاحظ فريزر..

أولاً: أن الإنسان القديم «البدائى عند تايلور» يفضل فى أن يفرق تقريباً واضحاً بين الطبيعة، وما وراء الطبيعة، فكل شئ فى عالمه مشخص، وأن هذا يقوده إلى أفكار غامضة خاطئة عن الطرق التى يمكن أن يؤثر بها فى بيئته.

وثانياً: أن هذا الإنسان لديه فلسفة بسيطة غير ناضجة مبنية على مبدأين خاطئين: أن الشبيه ينتج الشبيه، وأن الأشياء التى كانت تربطها صلة ذات مرة، تظل تؤثر كل منها فى الأخرى.

وقد ذكر «فريزر» فى كتابه الشهير «الفصل الذهبى» كمًا هائلاً من الأمثلة تصور ما ذهب إليه، نختار منها اثنين فقط هنا، يمثلان المبدأين اللذين سبق ذكرهما:

أ. السحر القائم على المحاكاة Imitative Magic، وهذا النوع من السحر يقوم على أنه يمكن إحداث الأثر المطلوب لشئ ما، وتمثيله، فالساحر صانع المطر Rain Maker يرقص ويحرك يديه ليحاكى سقوط المطر، بينما تفرع الطبول محاكاة لصوت الرعد، ويتمتم هو بعبارات معينة، أو أغان خاصة؛ كى يهطل المطر، كما يمكن عن طريق هذا النوع من السحر محاولة تدمير عدو أيا كان هذا العدو عن طريق تدمير صورته.

ويمكننا أن نربط بين هذا النوع من السحر وبعض المظاهر التي تمارس الآن حتى في أكثر المجتمعات تقدماً، ولكي نزيد الأمر وضوحاً فإن المقصود من السحر بالمحاكاة، كما وصفه «فريزر» أن الوسيلة لتحقيق مآرب الإنسان الذي يمارسه هي المماثلة أو الرمزية القائمة على التشابه، بمعنى أن يقوم هو نفسه بتمثيل أو محاكاة وتقليد النتيجة التي يريد تحقيقها في الواقع.

ولقد كانت هذه الطريقة تستخدم في كل مجالات الحياة في المجتمعات القديمة «البداية» فالمحارب كان يرسم صورة لعدوه، أو يصنع دمية تمثل هذا العدو قبل خروجه للقتال، ويقوم بحرق هذه الصورة أو طعن هذه الدمية برمح، أو سيفه، معتقداً أنه طالما نجح في حرق عدوه أو قتله، فإن هذا هو نفسه ما سوف يحدث لهذا العدو عند احتدام المعركة الحقيقية. وكذلك كان يفعل الصائد عندما يصنع دمية للحيوانات المفترسة التي ينوى الخروج لصيدها، ويرميها بسهامه أو يطعننها برمح، معتقداً أنه سيمثر على هذه الحيوانات، وأنه سينجح في التغلب عليها، والظفر بها، ولا يختلف هذا السلوك في الحقيقة عن السلوك الذي تتبعه بعض السيدات عندما يصنعن «عروساً» من الورق يثقبنها بإبرة أو دبوس خرقاً لعيون الحاسدين، ثم يحرقن الورقة لدرء الحسد، وحرق العيون الحاسدة، وهو ما سبق أن تحدثنا عنه، كما لا يختلف السلوك نفسه عن سلوك الإنسان المعاصر عندما يخرج في مظاهرة احتجاج على الهيمنة الأمريكية أو اعتراض على عدوان إسرائيلي، فيمزق صور رؤسائهما، ويحرق أعلامهما ورموزهما.

إن المبدأ نفسه . كما رأينا . ينطبق على سلوك الإنسان المعاصر، ويصدق على موقفه مما يدور حوله من أحداث، وما يحيط به من ظواهر، ورغبته في التحكم فيها، وتوجيهها لتحقيق نتائج تتفق مع مصالحه ورؤاه ومفاهيمه.

ب . السحر التائيري أو بالتأثير Sympthetic Magic، وهو نوع من السحر المعدي، ويعتمد أساساً على أن الكائنات جميعاً تضي بعضاً من سماتها وخصائصها وقوتها على الأشياء التي ترتبط ببعضها البعض، أو ذات صلة ببعضها البعض، أو تشكل جزءاً منها. ومن ثم فإنه يمكن باقتناء جزء من جسم أو شيء من لوازم الكائن أو الشخص الذي يراد السيطرة عليه وإخضاعه، مثل الشعر، أو الأظافر، أو الملابس، أو الأدوات التي يستخدمها، أو غير ذلك، أن تكتسب قوة عليه، وقدرة على تسييره أو قيادته لتحقيق ما يراد منه.

وقد زعم «فريزر» أن هذا النوع من السحر يلعب دوراً مهماً في معظم أنواع الخرافة، وأنه نظر إليه باعتباره سلفاً للعلم، كما عُدَّ محاولة مبكرة لصياغة قوانين تحكم الظواهر. لكن المشكلة أن هذه القوانين حدث أن كانت غير صحيحة.

ويذكر أننا إذا قمنا بتحليل حالات متعددة لهذا السحر التائيري لوجدناها كلها تطبيقاً خاطئاً لأحد قانونين أساسيين كبيرين للتفكير، ونعني بذلك القانون الذي يذهب إلى ارتباط الأفكار عن طريق المشابهة والآخر الذي يذهب إلى ارتباط الأفكار بواسطة

التماس أو التجاور فى الزمان أو المكان. إن ربطاً بين الأفكار المتشابهة ينتج سحراً قائماً على المحاكاة والتقليد، كما أن ربطاً خاطئاً بين الأفكار المتماثلة أو المتجاورة زماناً ومكاناً تنتج سحراً تأثيرياً بالمعنى الضيق للكلمة. وهذه المبادئ الخاصة بالارتباط جيدة، فى حد ذاتها، وهى حقاً أساسية تماماً فيما يتصل بآليات عمل العقل الإنسانى. على أية حال، إن التطبيق الصحيح للقانونين ينتج فى النهاية علماً، أما التطبيق الخاطئ فهو ينتج سحراً.. الأخ غير الشرعى للعلم.

إن ما ذهب إليه «فريزر» قد يوحى بأن السحرة هم الذين اكتشفوا قوانين الارتباط، وأن المشكلة كلها تنحصر فى أنهم أخطئوا عندما عمموا ذلك بنوع من الإفراط، ولكن من المشكوك فيه أنه قد عنى ذلك فعلاً.

إن كل ما ذكرناه يشير إلى أمر نراه غاية فى الأهمية فيما نحن بصدد، وهو أن الإنسان العادى لا يشغله. ولم يشغله تحليل الواقع بقدر ما يشغله. وما يزال يشغله. توجيه هذا الواقع لما فيه خيرهِ وصالحه، وفقاً لقدراته وظروفه، وبأية طريقة متاحة له. وعلى ذلك يمكن لنا أن نفهم لماذا اكتسب السحر هذه الأهمية والمكانة، عند الناس العاديين؛ ذلك أنه واحد من وسائل كثيرة. لعله أكثرها أهمية. يستعينون بها على تحقيق مصالحهم، ويهدفون من خلالها إلى جعل الحياة أكثر سهولة بالنسبة لهم، ويتمكنون بها من السيطرة على ما يهددهم سواء جاءهم التهديد من بشر مثلهم أو من ظواهر

كونية أو طبيعية يخشونها، في المقام الأول، أو على الأقل إلى جعل العلاقة بينهم وبين غيرهم من الكائنات والظواهر طيبة ، متسقة مع مصالحهم ومتطلباتهم.

إن السحر . في الحقيقة . نوع من الفكر، ونمط من السلوك، واسع الانتشار بين فئات كثيرة من الناس، وليس مقصوراً فقط على العامة منهم، أو محصوراً في غير المتعلمين، والذين لم ينالوا حظاً من الثقافة . بالمعنى الخاص للثقافة . لأن كثيراً من هؤلاء وأولئك يؤمنون بأفكار ويمارسون أنماط سلوك، تعد انعكاساً لاعتقادهم في السحر، سواء باستخدامه لتحقيق مصلحة مرجوة، أو اتقاء ضرر محتمل، خاصة أن السحر يتعامل مع عالم ما وراء المحسوسات، ويتعلق بالجوانب الخفية والفامضة في الحياة عامة، وفي التجربة الإنسانية خاصة.

لقد ذكرنا أن الناس يلجئون إلى استخدام السحر وسيلة لتحقيق أهدافهم الخاصة. وهو ما يتفق إلى حد كبير مع ما يتوقعونه من ممارسة أخرى، تكتسب ثوباً دينياً وشعبياً، ونعني بذلك التقرب من الأولياء والقديسين عن طريق الأدعية وتقديم النذور، وإقامة الأضرحة والمقامات، إنهم بالسحر يحاولون تحقيق أهدافهم عن طريق إجبار عالم ما فوق الطبيعة، والقوى الخفية، على الاستجابة لمطالبهم، وهم في اعتقادهم في الأولياء يحاولون بالتبرك بهم، وتقديم الهدايا لهم، أن يكتسبواهم إلى جانبهم كي يساعدهم بمحض اختيارهم على تحقيق مصالحهم.

ويعتقد كثيرون أن وسائل السحر مضمونة؛ لأنها تتعلق بإرادة من يستخدمه وقوة تأثير تعاويذه وأدواته التي يستخدمها، مما لا يتوفر في التوسل بالأولياء والقديسين الذين لا يعرف قاصدهم ما إذا كانت ادعيتهم ونذوره وهداياهم قد قبلت أم لا، ومن ثم يستطيع أن يتبين ما إذا كانت مصالحه ستتحقق، ومطالبه سيتم الاستجابة لها أم أن عليه أن يبحث عن أولياء وقديسين آخرين يكونون قادرين على معاونته. وفي السحر يعتقد أن الممارسات لا تفشل في تحقيق النتائج المرجوة، ولا تخفق في إنجاز المتوقع من ورائها، إلا نتيجة ارتكاب خطأ في الممارسة أو نتيجة سحر آخر مضاد قد يكون أقوى تأثيراً.

والحقيقة أن نتائج الخرافة عامة، والسحر خاصة، غير مضمونة دائماً. فقد يصل الإنسان إلى النتيجة المطلوبة مرة، ولا يصل إليها مئات المرات. ومع ذلك، فمن المثير للانتباه، أن أهم أسباب استمرار هذه الممارسات والمعتقدات ما يتصف به العقل البشرى من ميل إلى التعميم، بحيث يؤمن بصحتها وتأثيرها بناء على نجاح أمثله قليلة، قد لا يكون مشاركاً فيها أو مشاهداً لها، وإنما يعتمد في تصديقه لها على رواية أصدقاء أو زملاء يؤكدون صحتها، متناسياً حالات أخرى لم تحقق المرجو منها، وقد يكون شاهداً عليها أو مشاركاً فيها!!

وقد نشر الدانماركى الفريد ليمن Alfred Lehman كتاباً عن الخرافات والسحر، وخصص أكثر من نصف الكتاب لسرد تاريخي

عن المعتقدات السحرية والخرافية، وخصص الجزء الأخير من هذا الكتاب لتحليل سيكولوجى لما سماه «الحالات السحرية للعقل» .
«Magical States of Mind» .

يوضح «ليمان» فى هذا الجزء العوامل التى تنتج الخرافة بشكل مبدئى، والأخرى المسؤولة عن انتشارها وسيطرتها. وتأتى أهمية هذه الدراسة . خاصة الجزء الأخير منها . من أن «ليمان» لم يقع فى أسر تلك التصورات الخادعة عن صعوبة دراسة تلك العوامل، خاصة ما يرتبط منها بالأسول التى حجبها ضباب الزمن، وغطاها ترابه المتراكم. لقد أدرك أنه كى يصل إلى نتيجة يطمئن إليها، فإن عليه أن يعتمد بشكل رئيسى على المبادئ السيكلوجية المعروفة، يستدل بها، ويستنتج من خلالها.

وكانت أهم المبادئ التى بدأ بها وأولاها قدرًا كبيرًا من الاهتمام، ما يرتبط بأخطاء الذاكرة، وغططات الملاحظة وهوس سنشير إليه الآن.

لخص «ليمان» النتائج التى توصل إليها مركزًا على قابلية العقل الإنسانى للخطأ بتأثير عوامل متعددة، وكان واضحًا عنده أن الخرافات . قيل وهى كذلك بالفعل . قد خلقت من جديد نتيجة أخطاء فى الملاحظة، وما تلا ذلك من انتشار ما تحمله من أفكار خاطئة وتصورات غامضة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ما يصيبها من تشوهات وتحريفات نتيجة للتحيز والفرض، وقد ضرب «ليمان» أمثلة على ذلك من خلال الشهادات التى حصل عليها عن

«المذنبات» التي اعتبرت لوقت طويل إشارات وعلامات على معجزات. ونذرًا تنبئ عن وقوع أحداث غير متوقعة. وذكر أنه من غير المستغرب أن يتخيل الناس أنهم رأوا فيها أشياء خارقة، أو سيوف براقة، أو رموس مقطوعة، وصلبان مرفوعة، ووحوش ضخمة، وأنه نظر إلى هذه الظواهر. في الأغلب الأعم. باعتبارها نذر شؤم، وأنه يعقب ظهورها دائمًا نحس يصيب المجتمع والأفراد، وفي هذا السياق لاحظ «ليمان». وهو محق في ذلك. أن وجود مثل هذه المعتقدات وانتشارها كان. جزئيًا على الأقل. من عمل أخطاء الذاكرة، أو ما نسميه «النسيان الاختياري» أو «الانتقائي»، فالأحداث التي تتطابق مع النبوءات ذكرت باعتبارها برهانًا على صدق النبوءات أو التوقعات، بينما الأحداث الأخرى التي لم تتطابق، فإنها تلمع في الأذهان بشكل خاطف، ثم تخبو، وتتسى.

ولم يتوقف «ليمان» عند الإدراك ~~الحسي~~ والذاكرة فحسب، وإنما أشار أيضًا إلى تنوع الجوانب السيكلولوجية الأخرى للخرافة، وأكد على أن أحلامًا معينة، هي أصل الاعتقاد في الأشباح، متبنيًا بذلك موقفًا مشابهًا لموقف «إدوارد تايلور»، والحقيقة أن آراء «ليمان» كانت مرتبطة بشكل وثيق بالمعارف الإمبريقية التي أتاحت له، كما أنه هو نفسه قد أجرى عدة تجارب ذات صلة بالمعتقدات الخرافية.

على أية حال، إن موقف «ليمان» الأساسي هو أن الخرافة شكل من أشكال الخطأ، وقد عبر بقوله إن كل المعتقدات الخرافية هي

بداية ليست إلا مجرد تفسيرات خاطئة للظواهر، لوحظت بشكل غير ملائم، على نحو أو آخر.

ولكن لعلنا نتساءل هل هذا الذى ذكره «ليمان» تفسير واف وكاف للخرافة؟ نظن . لأسباب كثيرة . أن الإجابة ستكون بالنفى . فكما أوضحنا، ليس من السهل، تحت أى ظروف أن نثبت أن كل خرافة إنما هى خطأ .

إن الناس عندما يواجهون موقفًا محيرًا أو صعبًا أو غير مرغوب فيه أو محزنًا سوف يكونون مستعدين للتسليم بأن سلوكهم الذى قاموا به، مثل «لمس الخشب» أو «فرد أصابع اليد فى وجه الآخر»، أو «التلفظ ببعض الكلمات أو العبارات» إنما هو سلوك خرافى، قائم على معتقد خرافى لا يستند إلى أى أسس عقلانية، ومع ذلك فإنهم سيظلون يفعلونه، وربما ثار تحفظ آخر هنا، وهو أن كمًا كبيرًا من الخرافات ليس اعتقادات أو سلوكًا فرديًا، وإنما هى اعتقادات وممارسات اجتماعية، مقبولة وجاهرة، ومعترف بها، وليس هناك رفض حاسم لها أو إشارات إلى خطئها، ونظن أن هذا الجانب يحتاج أن يعلل، وأن يفسر أيضًا .

على أية حال تظل فكرة اعتبار الخرافات خطأ قائمة، ورغم كل الاعتراضات عليها، وإذا كنا ممن يميلون إلى استبعاد الخطأ باعتباره عنصرًا محوريًا فى نشأة الخرافة وانتشارها، فإن هذا لا يعنى بالطبع أننا نفكر أن أشكالاً متعددة من الخطأ تلعب دورًا مهمًا فى نشأتها وتموينها، واستمرار كثير من أشكالها وممارساتها .

قد يأتي الخطأ نتيجة الثقة في روايات شهود العيان للظاهرة أو الممارسة الخرافية المحكى عنها بالإضافة إلى أسباب أخرى بالطبع. ويورد الدكتور عبد المحسن صالح في دراسته القيمة عن «الإنسان بين العلم والخرافة» أمثلة كثيرة نورد بعضها هنا، ربما بشيء من الإسهاب لدلالاتها على ما نحن بصدد^(١).

في مساء يوم ٢ مارس عام ١٩٦٨، جل بالناس القاطنين في تسع ولايات أمريكية هوس غريب، ورعب شديد؛ إذ تجلى لهم في تلك الليلة المثيرة «طبق طائر» يحلق فوق رموسهم في الفضاء، وعندئذ انتهالت المكالمات الهاتفية على الجهات المعنية، وراحت تصف للمستقلين ما رأوه وشاهدوه بأنفسهم، وفي اليوم التالي نشرت الصحف والمجلات ما رآه الناس رأى العين، ثم راحت أجهزة الإذاعة والتلفزيون في تقديم أخبار مثيرة عن ذلك «الغزو» الذي يأتينا من الفضاء على هيئة أطباق طائرة تحمل مخلوقات غريبة.

ولقد اهتمت الجهات العلمية والحكومية بهذه الأبناء، وبدأت في تجميع كل المعلومات التي رآها الناس في مساء ذلك اليوم، وانبثق منها تقرير كبير يقع في أكثر من ٤٠٠ صفحة «فولسكاب»، وطبيعي أننا لا نستطيع أن نعرض كل ما جاء في ذلك التقرير أو بعضه، بل يكفي أن نلتقط منه أدق وصف لتلك الظاهرة.

(١) د. عبد المحسن صالح: الإنسان العاثر بين العلم والخرافة، سلسلة «عالم المعرفة»، العدد ٢٢٥، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط٢، يوليو ١٩٩٨، ص ص ٢٠١ - ٢١٠.

فى خطاب طويل ومزود برسومات لذلك الطبق الطائر الذى ظهر فى ليلة ٢ مارس، راحت سيدة تصف هذا الحدث العجيب فتقول: فى تمام الساعة التاسعة إلا ربيعاً بتوقيت تينيسى، خرجت أنا وزوجى والعمدة بعد العشاء إلى الخلاء لنتمشى ونتحدث، وفى هذه الأثناء رنوت ببصرى إلى الأفق الواقع إلى الجنوب الغربى، فرأيت جسمًا مضيئًا ينطلق من السماء، لكن ضوءه كان أكبر وأوضح من أى نجم لامع.

وعندما أشرت إلى زوجى وإلى العمدة برؤية ما رأيت، بدأ الضوء يكبر ويتضح ويلمع أكثر، وكان يسير فى مسار يشبه القوس، ثم بدأ يغير ألوانه، ويقترب منا، إنه الآن أكبر وأقرب، وهو يشبه سيجارًا ضخماً، أو جسم طائرة عملاقة، وعلى هذا الجسم تتراص نوافذ مربعة فأثار ذلك دهشتنا البالغة، لكننا تماسكنا وحبسنا أنفسنا، وأخذنا نرقب هذا المشهد بحذر شديد، ثم بدأ الجسم الطائر يتجه إلى الرأوية التى يقع فيها بيت العمدة، ولقد وقفنا وقتها صامتين... لا حركة ولا كلمة ولا همسة، لكن حلت بى بعد ذلك صدمة، إذ اختفى هذا الجسم هنية عن أنظارنا بسبب وجود بعض الأشجار، ثم إذا به يظهر فوق رؤوسنا فجأة!

ولقد دفعنى فضولى لى أعد نوافذ هذا الجسم الغربى، لكننى طردت هذه الفكرة بعد أن تطلعت عيناى إلى ظواهر أعجب وأغرب، فشدت إليها اهتمامى، من ذلك مثلاً أن الجسم الطائر كان ذا بريق معدنى غريب، ولقد أعطانى ذلك شعوراً بأنه أقرب إلينا

مما نتصور، ثم ظهر لنا ضوء خافت ينعكس على السطح السفلى من الجسم، وقد يرجع انعكاس هذا الضوء - على حد اعتقادي - إلى أضواء المدينة القريبة، أو ربما كان من الجسم ذاته، فلست متأكدة من ذلك.

ولقد كانت دهشتي بالغة عندما رنوت بعيني إلى النوافذ الكثيرة التي بدأت تبعث بضوء ساطع، أو هو أشبه بالضوء المنبعث من منازلنا المضاءة من الداخل، ولقد حاولت أن أثبت وجود مخلوقات أو أشياء أخرى داخل هذا الجسم، لكنني لم أستطع لضيق الوقت. ثم تضيف السيدة إلى ذلك فتقول: «إن تقديري المبدئي للجزء المضاء من هذا الجسم يقع في حدود ٧٥٪ من طوله، في حين أن حوالى ربعه الخلفى يبدو مظلمًا، وأود أن أؤكد أن الضوء الصادر من هذا الجسم لا يشبه الأضواء المتقطعة والمنبعثة من طائراتنا في أثناء تحليقها، ثم إن الجزء الخلفى منه كان ينفث وراءه ذيلًا من نار ضعيفة، وكان هذا الذيل بعرض مؤخرة هذا الشيء الطائر، أما لون النار فمزيج من أحمر وبرتقالي وأصفر، وهو أضعف في ضوئه من الضوء المنبعث من نوافذنا».

وتقول السيدة في جزء آخر: «لقد أصغيت تمامًا في سكون الليل علني أسمع صوتًا أو همسًا، فلم أسمع شيئًا على الإطلاق، ولقد كانت هذه أكثر اللحظات رهبة في حياتي فالجسم تأكيدًا لم يكن طائرة، ولو كان لسمعنا أزيزًا واضحًا، خاصة أنه كان قريبًا منا، إذ لم يكن يفصل بيننا وبينه إلا مسافة لا تزيد على ألف قدم (وخداع

النظر قد جعلها تخطئ هنا خطأ فاحشاً كما سيتبين لنا فيما بعد)، يضاف إلى ذلك أن الطائرة تتطلق في خط مستقيم، في حين كان مسار هذا الجسم ملتوياً كقوس. ولقد ظهر واضحاً - بعد ذلك - أن هذه المركبة الغريبة قد أخذت تبتعد عنا شيئاً فشيئاً، وعندئذ تعلق عيناى بالشريط النارى الذى يتركه هذا الجسم وراءه، ولقد كنت أتوقع أن أرى فى مؤخرته لهيباً من نار مندفعة، ولكنى لم لاحظ ذلك. كل ما لاحظناه أن الأثر النارى قد زاد لمعاناً، وربما كانت زيادة اللمعان نتيجة رؤيتنا لعمق النيران المندفعة من الذيل، ونحن ننظر إليها من الخلف، (لاحظ أن السيدة تحاول أن تعلق كل شيء وكأنما هى عليمه بكل الأمور، ولكن كل تعليقاتها كانت خاطئة كما سيتضح لنا بعد ذلك).

وفى النهاية أخذ هذا الجسم النفث المضىء ينطلق ويبتعد عن أبصارنا شيئاً فشيئاً، حتى هيئ إلينا وكأنما هو يلاصق الأشجار البعيدة الواقعة فى الشمال الشرقى، وبعدها اختفى للأبد عن الأنظار!

لقد بدا أن السيدة فى خطابها ووصفها لما رأت كانت دقيقة وأمينه، ثم ذهبت إلى أبعد من ذلك، وذكرت فى التقرير أنها كانت فى صحة جيدة، وحالة نفسية طيبة، وأنها تناولت طعاماً قليلاً مع بعض مشروبات كحولية خفيفة، ثم إنها لم تأخذ حبوب هلوسة، ولم تتناول دواء من الأدوية التى تؤثر فى العقل، أو تزيع البصر، وأوضحت مركزها الاجتماعى، وكيف أنها تتمتع بثقة الناس

واحترامهم، وأكدت أنها كانت متيقظة ومنبهة تمامًا عندما راقبت
بعذر واهتمام شديدين تلك الظاهرة التي لم تشهد لها من قبل
مثيلاً.

ولقد تضمن خطابها رسماً توضيحياً لهذا الجسم - كما رآته -
فجاء كمخطط مستطيل، وعلى أحد جانبيه تتراص نوافذ عشرة،
تحت الرسم كتبت معلقة: لقد انصب اهتمامي على النظر خلال
هذه النوافذ وليس على شكل النوافذ ذاتها، إلا أنني أكاد أجزم -
رغم ذلك - بأن النوافذ كانت متناسقة ومتراصة بنظام، وفي وضع
أفقى مستو، مع تأكيدى أن النوافذ كانت واضحة تماماً، وذات شكل
محدد، وأنها أكبر من النوافذ التي تتراص على جوانب طائراتنا،
وأخيراً تستنتج من كل ذلك أن هذا الشيء ربما كان من النوع
«السرى جداً» (تقصد قمراً صناعياً للتجسس)، أو ربما كانت
سفينة قادمة من الفضاء الخارجى!

وصف آخر لسيدة حاصلة على درجة دكتوراه فى العلوم

لكن تلك السيدة (واسمها المستعار فى التقرير «مارى») لم تكن
هى الوحيدة التى وصفت مثل هذا الوصف الدقيق والمطول، بل
هناك عشرات غيرها. فها هى «إليزابيث» الحاصلة على درجة
الدكتوراه فى العلوم، والتى تقوم بالتدريس فى فرع تخصصها،
تكتب بدورها عن هذه الظاهرة فتقول: إن لها اهتمامات خاصة
بهذه الأشياء الطائرة غير المعروفة، والتى يطلق عليها العامة اسم

الأطباق الطائرة، وأن ما رآته في هذه الليلة لا يمكن أن يكون ظاهرة طبيعية، بل كان حقيقة واحداً من الأطباق الطائرة!

وبعد أن قدمت د. إليزابيث رسماً توضيحياً لما رأت، وبدأت تسرد في خطابها أنها تطلعت إلى هذا الجسم المعلق من خلال منظار مقرب، ثم راحت بعد ذلك ترقبه بعينيها المجردتين، فظهر لها - بادئ ذي بدء - على هيئة أقرب إلى الشهاب أو المذنب، لكنها استبعدت أن يكون هذا أو ذاك، فمظهره وحركته وألوانه تتفى ذلك، كما أن هذا الجسم قد صار أجساماً ثلاثة بعد أن اقترب من الأفق، وأبطأ من سرعته، ولقد تراوحت ألوانها ما بين البرتقالي، ثم الأبيض ثم الأحمر، من الغريب - كما تقول - إن الأجسام الثلاثة كانت تحلق في تشكيل جوى متقن، وإنها كانت تتحرك ببطء شديد في اتجاه الشمال الشرقي.

ولقد دفع حب الاستطلاع إليزابيث لكي تطلق للجسم المعلق شفرة ضوئية محددة من بطارية قوية كانت معها، ولقد تكررت الشفرة مرات أربعة، لكن أحداً في هذا الجسم لم يجاوبها بشفرة مماثلة، ولقد أكدت هي بدورها أيضاً أنها لم تسمع من الجسم صوتاً على الإطلاق، لكن كلبها البالغ من العمر سنة وخمسة أشهر قد نظر إلى هذا الجسم، ثم تمدد وتكوم على نفسه، وكأنما هو يرتعد من الخوف حتى الموت (وهذا ظن خاطئ؛ لأن الكلاب كثيراً ما تفعل هذه الحركة، وقد تكون المصادفة هنا لعبت دورها).

ووصف من إنديانا للظاهرة نفسها

وتأتى رسالة أخرى من إنديانا، وفيها يقول صاحبها «فى حوالى الساعة العاشرة إلا الربع بتوقيت إنديانا نظرت من النافذة لتقع عيناى على جسم طائر عبر الوادى، وبعد دقيقتين أو ثلاث، رأيت عمى وعمتى وابن عمى يندفعون إلى منزلى، وهم يتصايحون، ويخبروننى عن الطبق الطائر الذى رأوه، وقالوا إنهم وجيرانهم قد شاهدوه وهو يمرق من الأفق إلى الأفق فى وقت جد قصير.

ولقد أكدوا جميعاً أن هذا الشيء المحلق كان يطير فوق قمم الأشجار، وأنهم رأوه بوضوح؛ لأنه كان يبعد عنهم أمثاراً قليلة (وهذا خطأ كبير كما يتضح فيما بعد) وهو يشبه إلى حد بعيد جسم طائرة نفاثة، لكن من دون أجنحة، ولقد كان يطلق السنة من نيران تندفع من الأمام ومن الخلف، واتفق جميع هؤلاء المشاهدين على أن الجسم كان مزوداً بعدة نوافذ.

ويضيف كاتب تلك الرسالة قائلاً: «إن ابن عمه قد ذكر له أنه كان فى مكانه أن يرى ركاب هذا الجسم من خلال النوافذ لو أنهم جلسوا بجوارها، وأخيراً تستنتج الرسالة أن هذا الجسم العجيب لابد أن يكون طبقاً طائراً!

ومن التقارير الغربية التى تجمعت أيضاً لدى الهيئات الرسمية تقرير يقول مرسله: «يجب أن ألقت النظر إلى أن النار التى اشتعلت فى الحشائش والأعشاب الموجودة فى المنطقة لم تكن حريقاً واحداً، بل حرائق عدة؛ لأنها اشتعلت فى مناطق متفرقة، ولقد بلغ

عددها . كما علمت . ٧٢ حريقاً حتى صباح اليوم الذى ظهر فيه هذا الطبق الطائر، وأظن أنه كان السبب فى تلك الحرائق، وأرجو أن ترشدوننى إلى ما يمكن عمله إذا ظهر مثل هذا الجسم مرة أخرى، ولقد تضايقت من الناس الذين شاهدوا هذه المركبة الطائرة، ولم يحاولوا إطلاق النار عليها، أو تتبعها وإسقاطها... إلخ.

والتقارير التى تصف هذه الظاهرة تعد بعد ذلك بالأمئات، ولكل من رآها وصف يختلف عن وصف الآخرين، لكن الجميع قد اتفقوا على أمر واحد؛ فهذا الشيء الغريب المحلق ليس إلا طبقاً طائراً به نوافذ، ومن النوافذ تنطلق أضواء ذات ألوان شتى، وأنه كان قريباً من الأرض.

هذا طبقاً رأى بعض الناس، ودعك إذن من الحكايات والأساطير والتعليقات والمبالغات التى تتردد على السنة كل الناس بعد ذلك، أو التى تتساب من أقلام الكتاب الذين يؤلفون المقالات والكتب عن الأطباق الطائرة (وهى كتب تدر عليهم دخلاً يسيل له لعاب المؤلف)، بل كل همهم أن يعرضوا بضاعتهم المشوقة، كما يصورها لهم خيالهم، وبهذا تروج كتبهم، ويأكلون خبزهم.

العلم يكشف الحقيقة

لقد تجمعت أحداث هذه الظاهرة المحيرة . التى أكد الناس أنها كانت من «فصيلة» الأطباق الطائرة . فى سجل بلغت صفحاته أكثر

من أربعمائة، كما سبق أن قدمنا، وجدير بالذكر هنا أن لدى الحكومة الأمريكية (بما فى ذلك السلاح الجوى، وأجهزة الدفاع الرادارية، وملفات البحرية، وإدارة المخابرات المركزية)، والهيئات العلمية . لديها من هذه السجلات ما لو جمع لصار مجلدات من فوق مجلدات، تتوء بحملها الخيل والجمال، وهى جميعها تتعرض لمثل هذه الظواهر التى يرجعها الناس إلى ما يسمونه خطأً بالأطباق الطائرة.

وعلىنا الآن أن نقدم رأى العلم بعد أن اختلفت آراء الناس، وتعددت أوصافهم وتقديراتهم. وهذا الاختلاف قد يشكل عبئاً على العلماء عند بحثها وتعليلها، إذ إن العلماء هنا كخبراء الجريمة أو رجال الشرطة الذين يحققون حادثه، فإذا بأقوال الشهود تختلف فى التقدير والوصف، مما يشتت الجهود، أو يضلل العقول الباحثة عن الحقيقة .. لكن ما أكثر اختلاف الناس فى تقديراتهم للظواهر غير المألوفة، خاصة عندما يشهدونها لأول مرة، ولا يعرفون عن أسرارها شيئاً مذكوراً .. أضف إلى ذلك أن الظاهرة المثيرة أو المخيفة أو المدهشة قد تغير نفسية المشاهد، وقد يترتب على ذلك خلط فى أحاسيسه، أو ارتباك فى رؤيته وتقديراته .. إلى آخر هذه الأمور التى يحسب لها العلماء ألف حساب وحساب.

إذن .. فما هذا «الطبق الطائر» الذى يشبه سيجاراً ضخماً، وبه نوافذ مضاءة، ويطلق الحرائق الأرضية، ويخلق فوق قمم الأشجار دون صوت، ويسبب خوف الكلاب ورعدها حتى الموت . كما جاء فى أحد أقوال شهود العيان؟.

الواقع أن تعليل هذه الظاهرة أو الحادثة التي أرعبت الناس في تسع ولايات أمريكية، وسببت للمسؤولين في أجهزة الأمن والدفاع متاعب وهوسًا لا حدود له، تعليل أبسط مما نتصور. صحيح أن الناس قد أجمعت على أنها لطبق طائر، لكن الحقيقة أنها كانت لزوند!

وما زوند هذا؟

إنه زوند الرابع.. زوند الروسى الذى انطلق من الاتحاد السوفييتى فى صبيحة ذلك اليوم المشهود - أى يوم ٣ مارس عام ١٩٦٨ - ثم تجلّى للناس فى مساء اليوم نفسه على هيئة مثيرة، وما كان له أن يظهر بتلك الهيئة لولا خطأ قاتل سوف نتعرض له بعد قليل.

فزوند الرابع واحد من سلسلة الأقمار الصناعية التى يطلقها الاتحاد السوفييتى لاكتشاف الكون الخارجى، ولقد أعلنت موسكو - فى صبيحة هذا اليوم ذاته - أنها أطلقت قمرًا صناعيًا ليتخذ له حول الأرض مدارًا. وكان من المقرر أن تشتغل الصواريخ الحاملة للقمر الصناعى فى فترة ما بعد إطلاقه من الأرض، لكن يبدو أن خطأ فنيًا قد حل بالتجربة، فلم تنجز الهدف الذى أطلقت من أجله، وتبع ذلك أن دخل القمر منطقة جاذبية الأرض مرة أخرى، واندفع خلال الغلاف الهوائى فى طبقات الجو العليا بسرعة رهيبة، وهنا حدث ما ليس منه بد، أن نتج عن ذلك احتكاك جبار بين زوند الرابع وبين جزيئات الهواء، فأدى ذلك إلى ارتفاع هائل

فى درجة حرارته إلى الحدود التى تسببت فى توهجه، ثم ما تبع ذلك أيضاً من انطلاق شرر كثيف يشبه النار الموقدة التى تتلون بألوان عدة، فأدى إلى انفصال القمر إلى أجزاء متعددة، فسبحت فى الفضاء الواحدة بجوار الأخرى فهى للناس أن تلك الأجزاء المتوهجة ليست إلا نوافذ مضاءة فى سيجار أو «طبق» طائر!

ولقد لعب خداع البصر، وحالات الناس النفسية، وتأيؤهم ذهنياً للدعايات التى يسمعونها ليل نهار عن غزو الأرض بأطباق طائرة، لعب هذا وغيره دوراً مهماً فى اختلاف الأوصاف، وتقدير المسافات فى الظاهرة الواحدة... فمنهم من قال إنه رأى «الطبق الطائر» فوق قمم الأشجار، ومنهم من أكد أنه كان ينطلق على ارتفاع ألف قدم أو ألفين أو خمسة آلاف، لكن الحقيقة أن زوند الرابع كان يسبح على ارتفاع ١٢٠ كيلو متراً من سطح الأرض، أو حوالى ٤٠٠ ألف قدم!

وهكذا فقد قدم لنا العلم الحل الصحيح لظاهرة جوية من صنع الإنسان نفسه، ولو لم يتوصل العلماء لشرحها وتوضيحها للناس، لكان لزوند الرابع شأن آخر، ولأصبح له فى أفواه الناس، وأجهزة الإعلام، والكتاب الذين يحبون الأخبار المثيرة، مادة دسمة لنسج مزيد من الخزعبلات والأساطير التى قد تترسب فى الأذهان بمرور الزمن، وعندئذ قد يرجعون كل ظاهرة طبيعية أو صناعية إلى ما يسمونه بالأطباق الطائرة، وهى ظاهرة - كما يصفها لنا دكتور «دونالد مينزل» أستاذ الفلك والفيزياء الكونية بجامعة هارفارد

الظروف الجوية يعرفها العلماء باسم الانقلاب أو الانعكاس الحرارى Temperature Inversion إذ كان الهواء فى ذلك اليوم - وعلى الارتفاع الذى كان يطير عليه آرنولد (٩٥٠٠ قدم) - ساكناً وصافياً، وهذه الشروط من شأنها أن تساعد على مثل ذلك الانعكاس، وتكوين خداع ضوئى ظنه آرنولد أجساماً لامعة كالأطباق.

والذين يرجعون إلى ملفات الشّوات الجوية الأمريكية سوف يجدون تقريراً مفصلاً عن حالة آرنولد وأطباقه. (وهو أول تقرير ظهر فى هذا المجال)، ويشير هذا التقرير إلى أن تقديرات آرنولد كانت متضاربة ومتناقضة. وليس فيها نوع من الترابط الذى يمكن أن نخرج منه بنتيجة لها معنى، ثم إن الالتباس أو الخداع البصرى قد ظهر فى تقديره لحجم هذه الظاهرة أو حركتها أو بعدها عنه.. إلخ، فحيث ظنها هو بعيدة عنه، وسريعة جداً فى حركتها، إلا أن تصريحاته للمسئولين جعلتهم يوقنون أنها كانت قريبة منه، وأبطأ مما كان يتصور، مثلها فى ذلك كمثّل خدعة زوند الرابع؛ إذ أكد شاهدو العيان أن «طبقهم» الخيالى كان قريباً جداً، وفى حين أنه كان بعيداً جداً، ثم إن أقوالهم تضاربت فى كثير من تفاصيلها... والنتيجة أن التقرير قد استخلص أن السيد آرنولد وقع ضحية خدعة الانعكاس الحرارى، كما يقع مسافرو الصحراء مثلاً فى خدعة السراب.

والواقع أن مثل هذه الظواهر الطبيعية التى تجلت للناس قديماً وحديثاً لاتزال إرثاً ثقيلاً على العقل البشرى، ولهذا تراهم يربطون

من المشتري وزحل على خط واحد بالنسبة لعين راصد على كوكب الأرض، وهناك من يعمد هذا الحدث إلى تجمع الكواكب الأربعة اللامعة فى خط واحد، فيتراءى للناس وقتها ظهور واضح الضياء، وثمة نظرية ثالثة ترجعه إلى مذنب قريب من الأرض.. إلخ.

إلا أن كلا من دافيد كلارك، وجون باركنسون عالمى الفلك بجامعة لندن، بالاشتراك مع ريتشارد ستيفينسون الفلكى بجامعة نيوكاسل، أرجعوا هذا الحدث فى بحثهم المنشور إلى انفجار نجم فى ذلك الوقت، ولقد تأكدوا من ذلك بفحص ما دونه علماء الفلك القدامى من الأحداث غير العادية التى كانوا يسجلونها عن السماء، إذ أشاروا إلى ظهور نجمين جديدين فى الفترة ما بين ١٠ ق. م ، و١٢ بعد الميلاد، وأن واحداً من هذين النجمين قد انفجر فى الفترة التى ولد فيها المسيح، ولقد تحقق العلماء الثلاثة من ذلك بعد إجراء عمليات حسابية وفلكية عويصة.. وطبيعى أن العلماء لا يزالون حتى اليوم يسجلون انفجار أمثال هذه النجوم ولمعانها ثم خفوتها (دلالة على موتها)، دون أن يكون لتلك الانفجارات الكونية دلالات على ما يجرى فى الأرض من أمور وأحداث.

والحقيقة أن هناك ظواهر طبيعية كثيرة ارتبطت بالخوارق والكرامات، كما أن الناس اعتبروا بعض هذه الظواهر فاتحة خير وبركة، كما اعتبروا بعضها الآخر نذير شؤم، ونحس، لكن العلم لا يرى فيها شيئاً من هذا أو من ذلك، بل إن ظهورها يرتبط بظروف خاصة، تساعد على تكوينها.

بقوله: «إنها أسطورة من الأساطير الحديثة التى توافق العصر الذى نعيش فيه».

بداية الأسطورة!

وطبيعى أن لكل أسطورة بداية، ولقد بدأت أساطير الأطباق من مشاهدة عابرة لرجل أعمال أمريكى يدعى كينث آرنولد. إذ بينما كان يحلق بطائرته الخاصة فى يوم ٢٤ يونيو عام ١٩٤٧ بالقرب من جبل رينبيير فى واشنطن، إذ به يكتشف وجود ظاهرة غريبة قال عنها: لقد كانت تطير قريبة جداً من قمم الجبل على هيئة طابور يمتد لأميال خمسة. وبدت لى كأنما كل واحدة تلتصق بالأخرى، ولقد كان عددها تسعة من أجسام تشبه الأطباق، وكانت تتحرف ببراعة كلما قابلت فى طريقها قمة من قمم الجبل، ثم تهبط ببراعة فى المنخفضات، ثم ترتفع... وهكذا، ثم إنها كانت ذات سطوح مستوية ولامعة لدرجة أنها كانت تعكس أشعة الشمس، وكأنما هى مرايا مصقولة.. إنتى أقرر أنتى لم أشهد ما هو أسرع منها فى حياتى!

وعندما نشر السيد آرنولد هذا الكلام وأذاعه بين الناس، ثم تناولته الصحافة بنوع من الإثارة، وعلى طريقته الدعائية الإعلانية الخاصة، أطلقت على هذه الأجسام اسم «الأطباق الطائرة» Flying Saucers وما هى بأطباق، ولا هى بطائرة، إنما هى نوع من السراب الخادع الذى ظهر نتيجة لظروف جوية خاصة هيأت ظهوره، وهذه

بينها وبين أحداث خاصة لتؤكد قدسيتها وأهميتها، وأنها لاشك معجزة أو خارقة من الخوارق.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك أن «النجمة» التي ظهرت في الشرق فجأة، وصاحبت مولد المسيح كان لها بين الناس شأن عظيم.. مسيح أن هذا النجم اللامع البراق لم يظهر للعين البشرية قبل ذلك في السماء، لكن يتصادف أن يظهر حقاً قرب مولد المسيح، وظل هكذا في لمعانه في أثناء مولده ثم اختفى بعد ذلك.

لكن العلماء في تعليلهم لمثل هذه الأمور يرون رأياً آخر، فهم لا ينكرون ظهور أمثال هذه النجوم، لكنهم ينكرون ارتباطها بالأحداث الأرضية، مهما كانت مكانة هذه الأحداث.. ففي الوقت الذي كنا نعد فيه هذه الدراسة، ظهر في مجلة علمية بريطانية تعليل معقول لهذا الحدث الذي يطلق الناس عليه اسم «نجمة بيت لحم» وأرجعته على حسب ما يقول ثلاثة من علماء الفلك - إلى نجم انفجر وقتذاك في السماء، وهو ما يعرف علمياً باسم «نوفة» Nove والنوفا تسميه قديمة أطلقها القدماء على نجم يظهر ويلمع فجأة في السماء. لكن النجوم - كما يعرف علماء الفلك والفيزياء الكونية جيداً - لا يمكن أن تظهر هكذا فجأة بين يوم وليلة، فمولد النجوم أو تكونها يحتاج إلى عمر يقدر بمئات الملايين من السنين.

لقد كانت هناك نظريات تقول: إن نجمة بيت لحم التي صاحبت مولد المسيح ليست معجزة ولا استثناء من القوانين الصارمة لهذا الكون العظيم، بل قد يرجع ظهور هذا الجسم اللامع إلى وقوع كل

وهنا لابد لنا أن نتوقف قليلاً أمام هذه الأمثلة التي أوردناها لنلاحظ ما يلي:

إن هناك ميلاً إنسانياً عاماً إلى اعتبار ما يقوله شاهد العيان دليلاً نهائياً لا يقبل الشك أو النقض، وهو أمر غير صحيح تماماً، ولعلنا أشرنا إلى ذلك من قبل، فالحقيقة أنه إذا حكى واحد أو مجموعة مثلاً عن رؤية الأطباق الطائرة: كما في المثال السابق - سنجد أن كل واحد ربما حكى حكاية مختلفة عما حدث. بل إن الشخص نفسه - في حالة الحكى الفردى - سيحكى عن الظاهرة نفسها أو الحدث نفسه حكايات متعددة، في فترات مختلفة، وفي سياقات أخرى ربما تختلف عن سياق الحكى الأول، وليس هذا الأمر غريباً أو اكتشافاً، وإنما هو حقيقة مقررة ويعرفها دارسو المأثورات الشعبية (الفولكلور) الذين مارسوا الجمع الميداني، خاصة جمع الحوادث وغيرها من أشكال الحكى الشعبى.

وربما كان علينا أن نتساءل: من أين التعدد أو الاختلاف فى الحكى، أو التعارض فى بعض الأحيان حتى إذا كان قليلاً؟ أو لعلنا نعيد السؤال على النحو التالى: لماذا نتصور أن كل من رأى إنما شاهد الشيء نفسه وناخذ هذا باعتباره مُسلمة، لا تحتاج إلى نقاش؟

قد يكون هذا التصور ناشئاً عن أننا نعد نظمنا السمعية والبصرية - أو ما قد نسميه بالحس المشترك - مناظرة أو مشابهة لنظم التسجيل الآتية كالكاميرا، أو جهاز التسجيل

الصوتى، والحقيقة غير ذلك؛ لأن هذا التناظر - أو المشابهة - خادع ومضلل، من جانبين على الأقل:

الأول: أن هناك كمية هائلة من المعلومات تصل إلى نظمنا الحسية - سمعية وبصرية - فى حالة وعينا واستيقاظنا، ولكننا لا نستطيع استيعاب هذا الكم الهائل أو تمثله، ومن ثم تتم عملية انتقاء أو اختيار لما يمكن لنا الاحتفاظ به، وإلا فإننا سنكون مثقلين إلى حد لا يمكن احتماله. والحقيقة أننا إلى الآن لا نعرف كيف يتم هذا الانتقاء أو الانتخاب على وجه الدقة؛ ذلك أنه أمر معقد جداً، ويختلف من إنسان إلى آخر، ومن موقف إلى آخر، لكن ربما يمكن تبسيط الأمر - دون حل المشكلة - حتى يمكن فهمه، بحالة وجودنا مثلاً فى «سوق شعبي» أو «مولد» أحد الأولياء أو القديسين.. حيث الزحام شديد، والضوضاء صاخبة، والتنوع فى كل شيء كبير.. ماذا إذا حكى اثنان عما صادفاه فى مثل هذه الأماكن أو المواقف؟ نتوقع أنه ستتم عملية تصفية أو تنقيح أو ترشيح لما يشاهد ويسمع تبعاً لحالة كل منهما واهتماماته، ليمر هذا الذى تم اختياره بعد التصفية والتنقيح؛ ليصبح فى مقدمة الصورة، بينما تدمج الأشياء الأخرى من مشاهد وأصوات؛ لتكون فى الخلفية القريبة أو البعيدة.

الثانى: إننا نتعرض كثيراً لأمر آخر مساو فى الأهمية يتمثل فى تلك الشظايا من المعلومات أو المعلومات غير الكاملة، والصور غير الواضحة أو المشوهة التى تأتى إلينا من الوسط الذى نعيش فيه،

أو العالم من حولنا.. فمثلاً قد يهمس واحد منا بصوت ضعيف، أو يبدو متردداً، عن شيء ما يراه غير واضح، أو يراه من مسافة لا تتيح له التحقق منه، في هذه الحالة نكون أمام أحد موقفين: إما أن نرجئ الحكم على هذا الشيء حتى تتوافر لنا معلومات أخرى تتيح لنا أن نعرف حقيقته، ولكن هذا ليس ممكناً، أو متحققاً دائماً. وقد نفهم من الهمس، والطريقة التي وصل بها إلينا، أنه إنذار ملح بوجود خطر أو عدو مثلاً، وهنا لا يصبح أمامنا إلا أن نخمن ماذا يكون هذا الشيء؟ معتمدين في ذلك على تجاربنا وخبراتنا الماضية، لأن المعلومة أو المعلومات التي وصلتنا غير كاملة، وعندئذ سوف نقوم عقولنا بملء الفجوات والثغرات الناشئة عن نقص المعلومات دون أن ندرك الحقيقة. وهكذا نرى أن الحسن ليس مجرد استجابة إيجابية فحسب وإنما هو تركيب معقد من مواد متعددة، تتضمن - في جانب منها - حوافز ومنبهات تأتي من الخارج، وتتضمن - في جانب آخر - أجزاء منتزعة من مخزوننا من تجاربنا وخبراتنا السابقة. وهذه التجارب والخبرات تتوقف بدورها على انطباعاتنا الحسية الأولية السابقة من ناحية وعلى المعلومات المنقولة إلينا من آخرين. ومثل هذه المعلومات لا تتعلق فقط بالأشياء الحقيقية فحسب، ولكنها تتعلق بمعتقدات عن سحرة، وأشباح، وعفاريت، ومردة، وظواهر غريبة، ومعجزات، وما إلى ذلك، وبممارسات عن طقوس وأنماط سلوك ترتبط بهذه المعتقدات.

ذكرنا - من قبل - أن الذاكرة عرضة للخطأ، ولأننا في حاجة لتأكيد ذلك، لكننا في الوقت ذاته نود أن نشير إلى أن الفكرة

الشائعة عن الذاكرة على أنها «آثار أقدام على رمال الزمن» ليست صحيحة تمامًا، كما أن الرأي الذي يرى أن هذه الفكرة قد محتها أو أزالها رياح الحياة، مضلل وخادع إلى حد كبير.

لقد أوضحت سلسلة من الدراسات أن التغيرات التي تقوم بها الذاكرة من الصعب أن تخضع لقانون واحد، وقد أجريت تجارب كثيرة في هذا المجال، بالإضافة إلى ما لاحظته جامعو الجوانيت والسير وغيرهما من أشكال الحكيم الشعبي، مما أشرنا إليه من قبل. وتم اكتشاف أن بعض التغيرات التي تحدث في حكاية خطوة مثلًا، كانت ذات صلة بنظرة الحس المشترك إلى الأحداث والمواقف، فعلى سبيل المثال يحدث أن يحذف رواية بعض التفاصيل والشروح، ويضيف آخرون أشياء أو مواقف مختصرة، ويضمنون حكيم تفاصيل أكثر، لكن الذي يستثير الانتباه أكثر من كل ذلك، هو ما يمكن أن يحدث من عمليات التعقيل التي تتضمن تغييرات لمواد أو أشياء كانت تبدو غريبة أو عجيبة، أو متافرة مع مواد وأشياء أخرى بحيث يتم استحداث وحدة أكبر، وتربطًا منطقيًا أكثر مما كان عليه الأمر من قبل، فقد تحل الطائفة أو الصاروخ محل الحصان الطائر، أو البساط الطائر، ويحل الكمبيوتر محل الكرة البلورية، ويصبح البطل مجداً في دراسته، محبوباً من مدرسيه، أكثر من كونه شجاعاً، يواجه المخاطر، والفيالزن: وما إلى ذلك، ويكون تفوقه العلمي سبيله للوصول إلى الانتصار على القوى الشريرة التي تريد به الضرر.

ويمكن لنا بالطبع أن نستنتج أن طبيعة هذه التغيرات ذات صلة بالإطار الذى يعيش الحاكى فيه، والاهتمامات المسيطرة عليه. مثل هذه التعديلات أو التغيرات، يمكن أن تحدث، وأن تنتقل بين الناس عندما تنتقل المعلومة من إنسان إلى آخر، كما أظهرت التجارب الكثيرة التى أجريت على الحكى عامة، والإشاعة خاصة.

من ناحية أخرى يمكن أن يؤثر التلاعب بتوقعات الإنسان على أسلوبه فى الحكى عما يظن أنه رآه أو سمعه، كما يمكن التأثير بالأسلوب نفسه على الطريقة التى سوف يفسر بها أحداثاً ومواقف وخبرات، على نحو معين، إذا وضع فى سياق محدد، يؤدى به إلى نوع واحد من التفسير على أساس المعلومة أو المعلومات الواردة إليه من مثل هذا السياق، فمثلاً إذا كتبنا على ورقة كلمة «أحمد» وطلبنا من إنسان ما أن ينظر إلى هذه الورقة بسرعة، ليعرف اسم اللون المكتوب، فإنه سيقروها «أحمر» وقد أجريت تجارب كثيرة على عمليات تهيئة الإنسان؛ لكى يدرك أو يفسر جوانب معينة فى بيئته أو فى عالمه، بطريقة مناسبة أو متطابقة مع التوقعات العامة، إذا كان قد هئى لأن يرى مثلاً كلمة لها علاقة بالطيور، فإنه سيرى كلمة «نمامة» (المرأة الكثيرة النوم) على أنها «يمامة»، وإذا هئى لأن تكون الكلمة لها علاقة بالسفر، فسيرى كلمة «سحارة» على أنها «سيارة»، أو كلمة «طابرة». وهى كلمة لا معنى لها. على أنها «طائرة»، وهكذا.

كما أجريت أيضاً تجارب كثيرة على التأثير على رأى الفرد، عندما يستمع إلى رأى الآخرين من أصدقائه أو زملائه، وأكدت

الشائعة عن الذاكرة على أنها «آثار أقدام على رمال الزمن» ليست صحيحة تمامًا، كما أن الرأي الذي يرى أن هذه الفكرة قد محتها أو أزالها رياح الحياة، مضلل وخادع إلى حد كبير.

لقد أوضحت سلسلة من الدراسات أن التغيرات التي تقوم بها الذاكرة من الصعب أن تخضع لقانون واحد، وقد أجريت تجارب كثيرة في هذا المجال، بالإضافة إلى ما لاحظته جامعو الجوانديت والسير وغيرهما من أشكال الحكيم الشعبي، مما أشرنا إليه من قبل. وتم اكتشاف أن بعض التغيرات التي تحدث في حكاية خطوة مثلاً، كانت ذات صلة بنظرة الحس المشترك إلى الأحداث والمواقف، فعلى سبيل المثال يحدث أن يحذف رواية بعض التفاصيل والشروح، ويضيف آخرون أشياء أو مواقف مختصرة، ويضمنون حكيم تفاصيل أكثر، لكن الذي يستثير الانتباه أكثر من كل ذلك، هو ما يمكن أن يحدث من عمليات التعقيل التي تتضمن تغييرات لمواد أو أشياء كانت تبدو غريبة أو عجيبة، أو متافرة مع مواد وأشياء أخرى بحيث يتم استحداث وحدة أكبر، وتربطاً منطقياً أكثر مما كان عليه الأمر من قبل، فقد تحل الطائفة أو الصاروخ محل الحصان الطائر، أو البساط الطائر، ويحل الكومبيوتر محل الكرة البلورية، ويصبح البطل مجداً في دراسته، محبوباً من مدرسيه، أكثر من كونه شجاعاً، يواجه المخاطر، والفيالزن: وما إلى ذلك، ويكون تفوقه العلمي سبيله للوصول إلى الانتصار على القوى الشريرة التي تريد به الضرر.

هذه التجارب أن كثيراً من الأفراد يكونون ميالين إلى الاستجابة بالطريقة نفسها التي يستجيب بها بقية أفراد الجماعة، وهم يفعلون ذلك ليجنبوا اعتبارهم غرباء، وربما يخضع آخرون أنفسهم عن عمد للاقتناع بأنهم رأوا ما رآه غيرهم من أفراد الجماعة، نتيجة ما يقع عليهم من ضغط هائل تحت ظروف معينة؛ كي يسيروا في نفس الخط مع غيرهم من رفاقهم، فإذا أضفنا إلى ذلك، أنه في حالات معينة، تنشأ رغبة قوية للتصديق عند البعض، وتستثار. من ثم . توقعات قوية بأن أشياء معينة خارقة أو عجيبة سوف تحدث، وعندئذ سيكون المزاج مهياً نفسياً وعقلياً لإيجاد التفسيرات الملائمة والمناسبة لتلك التوقعات.

يصعب على الإنسان أن يتقبل أن يعيش مقهوراً، مسلوب الإرادة، عاجزاً عن أن يسيطر على حياته، وأن يحدد مصيره، بشكل مطلق، وإلا فقد متعة الاستمرار في الحياة، والقدرة على تحقيق ذاته في حاضر يعيشه، أو مستقبل يستشرفه.

وتختلف ردود فعل الإنسان إزاء تلك القوى التي تقهره، أو تعمل على سحق إرادته، وتتخذ أشكالاً متعددة؛ فهو قد يثور عليها، أو قد يحاول الابتعاد عنها والنجاة بنفسه من سيطرتها مهاجراً، سواء أكانت هجرته مكانية أو زمانية، أو قد يتكيف معها إلى حين، مخترعاً لنفسه سبلاً وأساليب وطرقاً يخفف بها من تأثيرها عليه، وقد يحاول الاستعانة بقوى أخرى يعتقد في قوتها، وفي قدرتها على مساعدته على تجاوز ظروفه، ومؤازرته في صراعه، مع عجزه

الثانية: تنحصر فى إرجاع الظاهرة التى تبدو واضحة، وأسبابها معروفة عامة وشائعة، إلى سبب أو أسباب غيبية منه، مثل أن هزيمتنا فى يونيه ٦٧ حدثت عقاباً لنا من الله بسبب بعدنا عن طريقه السوى، وهو ما عبر عنه أحد الأئمة الكبار عندما قال فى أحد لقاءاته مع مريديه إنه صلى لله شكراً، لأننا انهزمنا فى عام ٦٧، لأننا لو انتصرنا لأصبحنا شيوعيين!!

هكذا الهزيمة هنا ليست بسبب عدم التخطيط السليم، ولا بسبب نقص فى الاستعداد. أو غير ذلك من الأسباب التى أفاض فيها المحللون والمؤرخون، وإنما الهزيمة هنا عقاب من الله، وليست بسبب قصورنا وأخطائنا.

إن عالم ما وراء الطبيعة يعد ملجأً جاهزاً يلجأ إليه الإنسان إذا ضاقت أمامه السبل، ومن ثم تحكم الخرافة تفكيره وسلوكه، وتصبح وسيلته لتفسير كل ما ينسب إلى قوى طبيعية أو مجتمعية.

وهذا النوع من التفكير، الذى لا يعول إلا على الروابط الغيبية، لا يعتبر ما يعد سبباً وعلة لما يحدث، إلا مناسبة له، أو بتعبير أدق ليس إلا أداة فى يد القوة الخفية، ولا شك أنه يمكن للمناسبة أن تتغير، وللأداة أن تستبدل بغيرها دون أن يمنع ذلك من حدوث الحادثة؛ إذ يكفى لوقوعها أن تتمكن القوة الخفية من القيام بعملها، وألا تقف فى طريقها قوة خفية أخرى من نوعها، ومن هنا فلا وجود للمصادفة، لذلك فهو لا يهتم بالارتباط السببى، ويتم عزو أو نسبة كل حادثة تواجه الإنسان إلى أصل غيبى.

ولا يتم البحث عن الشروط التي تعمل على وقوع الحوادث أو عدم وقوعها، ويترتب على ذلك أن يتم تلقي الأشياء والحوادث المفاجئة أو التي تخالف المعتاد أو المنتظر، بالانفعال أكثر مما يتم تلقيها بالدهشة، ولا يستغرق الأمر طويلاً حتى يمكن التعرف فيها على بعض مظاهر القوى الخفية، ثم يحدث أن تفسر - على وجه العموم - بأنها إيدان بوقوع شيء ما، وغالباً ما يكون هذا الشيء غير سار.

ولما كان هذا النوع من التفكير يرى أن القوى الخفية موجودة ماثلة دائماً أمامنا، فإنه يرى القصد في كل ما يقع، والتدبير في كل ما يحدث، وأنه لا حاجة إلى تفسير الحادثة أو شرحها أو توضيح جوانبها، ذلك أنها تفسر نفسها بنفسها لأنها مقدرة سلفاً، وما يسمى الحادث العارض لا وجود له عند من يعتقدون في الخرافات؛ إذ إن هذا الحادث العارض ليس إلا مظهرًا من مظاهر القوى الخفية قد يصيب الفرد والمجتمع على السواء.

ولا يغير من سلوك المعتقد في الخرافة أن يكون الحادث عارضاً خالياً من علامات الشؤم أو النحس، وأنه بشير بالسرور والسعادة مثلاً، فهو يرى فيه دائماً أثراً من آثار القوى الخفية، وهو يخشى هذه السعادة وهذا السرور والفرح، في غالب الأحيان؛ لأنه يرتاب في كل خير، ويخشى كل نجاح يأتيان بغير الطريق المعتاد.

وتوجد - في الحقيقة - آراء ونظريات متعددة تحاول أن تعلل لبقاء الخرافة، وما يرتبط بها من معتقدات أو أنماط سلوك،

المادى عن تغيير واقعه، والانتصار على تلك القوى التى تقهره، وتحبطه، وتشل إرادته، وتفقده توازنه. ولا يستطيع الإنسان وحده. فى الحقيقة. مهما يكن اقتناعه، ومهما تكن قوته، أن يواجه تلك القوى العاتية، أيّما كان الاسم الذى تحمله، أو القناع الذى تستتر وراءه، أو الزى الذى ترتديه، أو الأفكار التى تدعيها أو تبشر بها، وسواء أكانت هذه القوى من صنع الطبيعة، أم من صنع المجتمع.

فإذا استبعدنا السلوك الإيجابى الواضح لمواجهة تلك القوى، ونعنى به الثورة عليها، لصعوبته الكبيرة، ونتأجه غير المضمونة، والتى قد تؤدى به إلى فقد حياته ذاتها من حيث يريد استعادتها وتتميتها والتقدم بها لما فيه خيره، وخير من يلوذ به، أو يعيش معه فى المجتمع نفسه، لم يعد أمامه إلا ما سبق أن ذكرناه من أساليب لا تغيير واقعه، ولا ترفع عنه الظلم، ولا تدفع عنه القهر، وإنما أقصى ما يمكن لها أن تقدمه له هو أن تعينه على الاستمرار. إلى حين. أملاً فى أن تتغير الظروف والشروط المجتمعية، سواء تم ذلك بفعل قوى مادية أو معنوية، وسواء تم ذلك أيضاً بفعل قوى من داخل ذاته أو من خارجها، أو من داخل مجتمعه أو من خارجه.

ولما كإن الإنسان لا يستطيع أن يتحمل الفشل دائماً، أو أن يرضى عن عدم تحقق رغباته وآماله مطلقاً، وأن يعد نفسه مسئولاً عن هذا الفشل، أو عدم تحقق أمانيه، فإنه يعمد إلى أن ينسب كل هذا إلى قوى خارج ذاته. وهو عندما يصل إلى هذا المستوى من التفكير، يعزو أيضاً النجاح الذى يصل إليه، وتحقيق رغباته، إلى

القوى نفسها؛ «فالمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين»، وهذا المكتوب لا دخل له فيه، ولم يشترك هو فى صياغته، وإنما هو مقدور عليه، لا حيلة له فيه، وقد يكون خيراً، وقد يكون شراً.. إنه فى كل الأحوال غير مسئول عنه أو فاعل فى تحقيقه.

ويزداد لجوء الإنسان إلى الخرافة سبباً لاستحداث التوازن العقلى والعاطفى، كلما زاد إحساسه بقلّة الحيلة إزاء ما يواجهه، وتأكده من عجزه عن تغيير واقعه. ويجمع كل الباحثين الذين تصدوا لدراسة الخرافة، والتفكير الخرافى، على أن عصور الركود وفترات الهزائم، وانتشار الجهل، والتكرار للفكر العملى والنقدى ورفضه، وافتقار الحرية - بكل ما تعنيه الكلمة من معنى - كلها عوامل تؤدى إلى لجوء الإنسان إلى الخرافة والتفكير الخرافى، ملجأ، ومهرباً، وتفسيراً، وراحة.

والحقيقة أن القهر الاجتماعى، والاستبداد السياسى، والظلم والخوف من المجهول، واليأس من التغيير إلى الأفضل، والحرمان والإحساس بالمعجز، وسيطرة الفكر الذى يسلب الإنسان حقه فى أن يكون إنساناً فاعلاً مؤثراً، يصيب ويخطئ ويحوّله إلى إنسان خائف مذعور، ويقنعه بأنه مجرد شيء لا حول له ولا قوة، كلها شروط أساسية لسيطرة الخرافة وانتشارها، وتحولها من مجرد عبارات تقال أو ممارسات عارضة، إلى سلوك حياتى، ونمط تفكير، ومن ثم تنشأ مؤسسات تساعد على انتشارها، وتستخدم فى سبيل ذلك كل ما فى جعبتها من أساليب وطرق تؤكد بها شرعية ما تذهب إليه،

وتؤكد بها فى الوقت ذاته شرعيتها هى فى السيطرة على عقل الإنسان وحياته، حتى يعم الجهل، وتعمق الاستكانة، ويتم تزييف الواقع، بحيث يستحيل تغييره، لحساب واقع آخر، سيكون كل شيء فيه على خير ما يرام، وكأفضل ما يحلم به الإنسان.

وفى الخرافة تتشابك الكائنات والأشياء والحوادث، وتختلط ببعضها البعض، كما تختلط بقوى خارج ذات الإنسان، ومن هذا التشابك والاختلاط يتكون بناؤها، ويؤسس انتظامها. على ذلك إذا استرعى انتباه الإنسان الذى يعتقد فيها، ويلجأ إليها. إذا أعوزته السبل. إحدى الظواهر، ولم يستطع فهمها، أو إدراكها اتجه ذهنه فوراً إلى وجود قوة خفية غير مرئية، وجعل تلك الظاهرة مظهرًا من مظاهرها، ونسبها إليها. وهكذا كلما بدا له شيء غير معتاد، أو لا يستقيم مع العقل، اتجه تفكيره فوراً إلى ما وراء الطبيعة؛ لكى يجد له تفسيراً أو تبريراً، دون أن يجهد نفسه فى البحث عن سبب أو تفسير له فيما قد يسميه غيره بالأسباب الطبيعية. وهنا لابد أن نلاحظ أن علاقة السببية فى الخرافة تبدو فى صورتين مميزتين متجلورتين:

الأولى: ذلك الارتباط الزائف الذى تفرضه التصورات الجماعية، كأن يقال مثلاً إن الإنسان إذا لم يدخل البيت برجله اليمين، فإن هذا يحمل نذير شؤم، وإن البيت ستصيبه كارثة، أو إن الإنسان إذا لم ينم على جانبه الأيمن سيصاب بالأرق، ولن يتمكن من النوم نومًا هادئًا.

وانتشارها وتأثيرها، لعل أكثرها أهمية وانتشارًا ما ذهب إليه أصحاب مدرسة التحليل النفسى (فرويد ويونج وتلاميذهما). إنهم يرون أن الأحلام التى يحلم بها الناس مصدر دائم للخرافة، وأن الأصل الأول لكثير من الخرافات هو المرض النفسى لدى البعض مما يجعلهم أكثر استعدادًا للخلط بين الحلم والواقع.

ويذهب «يونج» إلى أننا الآن نعتمد على نظم من المعتقدات؛ كى نلبى بشكل أساسى الاحتياجات نفسها التى كان الإنسان قديمًا يسمي إلى تحقيقها، وأنه إذا فشل المجتمع فى أن يمدنا بالمعتقدات المشتركة اجتماعيًا، فإن البدائل التى نضطر إليها أكثر سوءًا. إننا لم نستطع إلى الآن فهم المجتمع الذى نعيش فيه، كما فعلنا مع الطبيعة، ولكن يونج يرى أن هذا خدعة، وأنه غير صحيح؛ فمن منظوره أن القوى الخفية للاشعور الجمعى لن يكون فى الإمكان التحكم فيها بشكل كامل أبدًا، وأنه ليس متاحًا لنا على نحو مطلق أن نختار بين أيديولوجياتنا المختلفة التى نعتقد فيها أو نؤمن بها، وبين الأفكار السحرية المستعدة كى تحل محلها، فى أى وقت. وعلى الرغم من أن ما يقصده «يونج» لم يكن واضحًا تمامًا، إلا أن الانطباع الذى يمكن للإنسان أن يخرج به هو أنه لم يكن يقصد التقليل من شأن المعتقدات الدينية أو السياسية بقدر ما كان راغبًا فى أن يجعل الخرافة محل تقدير.

على أية حال، لقد نظر «يونج» إلى الخرافة على أنها خاصية مميزة للنفس البشرية، كما ذهب إلى أنه على الرغم من عقلانية

القرن ونصف القرن الماضيين، فإن الاعتقاد فى الأرواح وتجلياتها المشابهة يظل واسع الانتشار بين الناس بصورة عامة.

ويمكن لنا . من متابعة ما كتبه «يونج» حول هذه الموضوعات . أن نلاحظ أنه قد أكد على أن الناس فى أيامنا هذه عقلانيون إلى حد كبير، ولذلك فإنهم يتجهون إلى رفض إيجاد مخارج أو مسارب لجزء من طبيعتهم، لا تتناسب مع عقلانيتهم ، ومن ثم فإن هذا قد يتم التعبير عنه بشكل عنيف ومفاجئ.. وهو يقابل هذا مع عالم الإنسان القديم (البدائي) المنعم بالحياة، والذي كانت فيه الأرواح بالنسبة له دليلاً مباشراً على العالم الروحي الذى كان يكن له احتراماً كبيراً، ويحتل لديه مكانة مهمة جداً.

ولقد أثار «يونج» سؤالاً استكشافياً عما إذا كان من الممكن الجزم بأن رؤية الظواهر الخارقة والكائنات الغريبة أكثر شيوعاً وانتشاراً بين البدائيين منها بين الأوروبيين!! وذهب إلى القول بأنه مقتنع تماماً أنه إذا قام أوروبى بالطقوس والممارسات نفسها التى كان الطبيب القديم (البدائي) أو الساحر يقوم بها لكى يجعل رؤية الأرواح ممكنة، فإنه كان سيحصل على الخبرات نفسها، وإن كان يعتقد أنه لا يوجد دليل على وجود حقيقى للأشباح.

وإذا كنا قد وضعنا «فرويد» و «يونج» معاً، فقد فعلنا ذلك لمجرد التبسيط والبعد عن مناقشة اختلافاتهما مما نرى أنه يصبح مضجراً للقارئ، كما يخرج عن حدود هذه المحاولة. لكنهما، على أية حال، اشتركا فى موقفهما من الخرافة فى عدة أشياء؛

كلاهما وافق على أن المعتقدات والممارسات الخرافية عميقة الجذور في العمليات العقلية اللاواعية عند الإنسان، كما آمن كل منهما بأن الخرافات ليست شيئاً من آثار الماضي، أو أنها مقصورة فقط على الفئات الأقل تعليماً في المجتمع؛ بل إنها في الحقيقة أشبه ما تكون بجزء من عملية تجميل عقلية، يقوم بها كل إنسان لنفسه، وإنها عرضة دائماً لكي تطفو على السطح بتأثير ظروف معينة.

لقد ركز أصحاب هذه المدرسة (خاصة يونج وتلاميذه) في دراستهما للخرافة على تأثير اللاشعور في رؤية الإنسان للواقع، وذهبوا إلى أننا إذا تأملنا صورة واقعية حديثة للعقل الإنساني، فسوف نجد أن هذه الصورة تكشف عن كم لا بأس به من البقايا الخرافية والآثار الأسطورية التي مازالت تلعب دورها تماماً، كما لو أن شيئاً لم يحدث طوال القرون الماضية. ولكن هذا لا يعني أن الخرافة عند أصحاب هذه المدرسة تظهر باعتبارها مخلفات من الماضي السحيق أو القريب، لم يعد لها مكان في حياة الإنسان؛ بل إنهم نظروا إليها باعتبارها جزءاً من التكوين النفسي للإنسان، يظل كامناً في أعماق اللاشعور الفردي أو الجمعي، إلى أن تطرأ ظروف معينة تدفع به إلى السطح على مستوى الفكر والوعي والسلوك، هذا بالإضافة إلى أن الخرافات تحمل كثيراً من الرموز التي ينبغي تأملها وتحليلها، فهذه الرموز تأتي عفويًا؛ لأن الخرافة تحدث ولا تبتدع، ومن ثم فهي أحد المناهل الرئيسية لمعرفة الرمزية، وما

تحمله الأحلام من رموز. فالحلم يمد الحالم بمعلومات وإشارات لا تقل قيمتها عن قيمة المدركات التي يحصل عليها أثناء اليقظة، بل قد تزيد.

وإذا كان العالم المرئى وغير المرئى يكونان فى الخرافة عالماً واحداً يصبح الاتصال حينئذ مستمراً بين ما نسميه بالحقيقة الحسية، وبين القوى الخفية، ولكن هذا الاتصال لا يحدث بصورة كاملة وبشكل صريح أو واضح إلا فى الأحلام، حيث ينتقل المرء فيها من أحد العالمين إلى الآخر ذهاباً وإياباً دون أن يشعر.

ويعتقد بعض الناس أن الحلم يمدهم بمعلومات لا يمكن الشك فى صدقها، وكما ذكرنا لا تقل أهميتها أو قيمتها عما يدركه فى يقظته، ويؤمنون أن كل ما يعلن عنه الحلم سيحدث، وأن كل ما اطلعوا عليه قد حدث بالفعل، فهذا الذى يروونه فى الحلم يعد مستقبلاً من وجهة نظرهم؛ لأنهم يتوقعون حدوثه فى المستقبل، وهو فى الوقت نفسه يعتبر ماضياً، لأنهم رأوه فى الحلم، وبذلك يعدونه قد وقع بالفعل. ويبدو هذا بالطبع مستحيلاً بالنسبة للكثيرين منا؛ إذ كيف يمكن لحادثة واحدة أن تحدث فى زمنين مختلفين متباعدين، فتنتسب إلى الماضى، وإلى المستقبل فى آن واحد؟ الحقيقة أن الخرافة تسلم بالوجود فى وقت واحد لمدركات لا يمكن أن توجد معاً فى زمان ومكان واحد تبعاً لفكرتنا عن الزمان والمكان.

وإذا كان المستقبل والتفكير فيه، والعمل من أجله، أمراً طبيعياً، شغل الإنسان ويشغله، وسيشغله إلى ما شاء الله، فإن القلق بشأنه أمر مشروع، وهو أكثر مشروعية وأهمية بالنسبة للإنسان المغلوب على أمره في إطار معاناته وسخطه على الحاضر الذي يعيشه، ولا يستطيع أن يحقق له ما يريده. وهو في هذه الحالة يتراوح ما بين الأمل في المستقبل، والخوف منه، وما بين رغبته في تجاوز حاضره، والتطلع إلى مستقبل يتحقق له فيه ما حرم منه، وعدم الثقة في أن يكون المستقبل مختلفاً عن ماضيه البائس أو حاضره السيئ، ومن ثم يتطلع إلى وجود دلائل أو إشارات تطمئنه ويضنيه البحث عن علامات تشيع الأمل في نفسه، وتكشف عما يخبئه له «المقدر والمكتوب»؛ لأنه لا يملك غير ذلك في إطار ظروفه الضاغطة. ولكنه رغم ذلك لا يستطيع أن يقف ساكناً، أو يقنع بموقف المتفرج السلبي، ومن ثم يتحایل على واقعه وظروفه، محاولاً أن يستتبط ما يمكن أن يحدث له، وأن يستشف ما سوف يكون عليه حاله، وحتى يستطيع أن يعد نفسه له إذا كان خيراً، وأن يحتاط له إذا كان شراً، ولذلك فهو يلجأ إلى من يفسر له أحلامه التي تعد إحدى الوسائل التي ينفس من خلالها عن مكبوتاته ورغباته، وأحد الوسائل الأساسية التي ينتصر بها على واقعه، ويسيطر عليه، لاشعورياً. وتكمن أهمية الأحلام - في هذا السياق - في أنها بالنسبة للحالم تحمل علامات وإشارات ورموزاً، وتجمع بين هذه العلامات والإشارات والرموز، وبين النوايا والآمال والرغبات التي يتوق إليها. كما أن تفسير الأحلام وتأويلها يحتل مرتبة

مقدمة بين الوسائل التي يسمى الإنسان بها أو من خلالها للتنبؤ بالمستقبل، أكثر من غيرها، وهناك متخصصون ينظر إليهم باحترام وتقدير كبيرين، ويعدون حكماء متمكنين، ومن ثم فلا بد أن تتوفر فيهم شروط محددة، تتيح لهم أن يقوموا بمهمتهم، وأن يكونوا على دراية وتفقه في كثير من العلوم والمعارف حتى يستطيعوا فك شفرات الأحلام وإدراك رموزها.

يقول ابن سيرين في مقدمة كتابه «اعلم وفقني الله وإياك لطاعته، أن الرؤيا لما كانت جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، لزم أن يكون المعبر: عالماً بكتاب الله، حافظاً لحديث رسول الله ﷺ، خبيراً بلسان العرب، واشتقاق الألفاظ، عارفاً بهيئات الناس، ضابطاً لأصول التمييز، عفيف النفس، طاهر الأخلاق، صادق النسب؛ ليوفقه الله لما فيه الصواب ويهديه لمعرفة أولى الألباب».

وعندما يتحدث عن تأويل الرؤيا يقول «فإن الرؤيا تعبر باختلاف الأزمنة والأوقات، فتارة تعبر من كتاب الله تعالى، وتارة تعبر من حديث الرسول ﷺ وتارة تعبر من المثل السائر، وربما صرفت عن رأى إلى نظيره أو سميّه. وقد تؤول الرؤيا من إفظ الاسم مرة، ومرة من ضده، ومرة من اشتقاقه، ومرة بالزيادة، ومرة بالنقصان»^(١).

ويحفل التراث العربي بالكثير من الكتب والحكايات عن الأحلام والرؤى وتفسيرها، ولا تكاد سيرة شعبية تخلو من حلم أو

(١) ابن سيرين: «تفسير الأحلام الكبير»، المقدمة، ص ٥، وبعدها.

رؤية تنبئ عن مصير الأبطال ومستقبلهم. ويذكر أحمد شمس الدين الحجاجي^(١).

«حملت الرؤيا كثيراً من النبوءات عن ميلاد البطل في كثير من السير الشعبية، ولفظ الرؤيا كثيراً ما يستخدم مرادفاً للحلم. وقد يفرق بعض المسلمين من المتدينين بينهما بأن الرؤيا من الرحمن، والحلم من الشيطان. وقد يفرق بينهما اصطلاحياً بأن الحلم لا يكون إلا في النوم، بينما الرؤية تكون في اليقظة أو في حالة بين النوم واليقظة. ولا يهتم جمهور العامة كثيراً بهذا التفريق؛ فالرؤيا حلم، والحلم رؤيا. وقد تستخدم كلمة حلمت مرادفة لكلمة شفت؛

فهو قد يقول «شفت.. خير.. اللهم اجعله خير.. شفت إنى..» وقد يقول «حلمت خير اللهم اجعله خير..» على تصور أن ما يراه الراوى إنما هو رؤيا أو حلم صادق. وقد اشترط للمعبر -أى الذى يفسر الأحلام أو الرؤى- مع صلاحه لكن ينفذ إلى علم الرؤيا ثلاثة أصناف فى العلم:

أولها: حفظ الأصول ووجودها واختلافها وقوتها وضعفها فى الخير أو الشر لتعرف وزن كلام التأويل ووجوهها واختلافها.

وثانيها: تأليف الأصول بعضها إلى بعض؛ حتى تخلص كلاماً صحيحاً على جوهر أصول التأويل وقوتها وضعفها، ويطرح عنها من الأضغاث والتمنى وأحزان الشيطان وغيرها مما يضر الرؤيا.

(١) د. أحمد شمس الدين الحجاجي: «النبوة أو قدر البطل فى السير الشعبية»، مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٩ - ٣١.

وثالثها: شدة فحص الرؤيا والتثبت فى المسألة؛ حتى تعرف حق المعرفة. وقد رأى كسرى حلمًا خاصًا بحمزة «سيرة حمزة البهلوان»، ورأى الخليفة الهادى رؤيا خاصة بعبد الوهاب «الأمير عبد الوهاب فى سيرة الأميرة ذات الهمة»، ورأى الملك الصالح نجم الدين أيوب رؤيا خاصة بالظاهر بيبرس «سيرة الظاهر بيبرس»، ورأى الملك التبع حسان اليمانى حلمًا خاصًا بزوال ملكه، وانتصار المهلهل الزير سالم عليه «سيرة الزير سالم».. إلخ.

وليس من هدفنا هنا بالطبع أن نفيض فى الحديث عن الأحلام وأنواعها، أو عن المفسرين والشروط التى يجب توافرها فيهم، وما إلى ذلك، وإنما أوردنا ما أوردناه؛ لنذكر على أن الأحلام احتلت مكانة كبيرة لدى الناس قديمًا، وما زال لها المكانة والأهمية نفسها لدى الإنسان المعاصر، وفى كل الثقافات عامة، ولكنها تزداد أهمية عندما تصبح متفسمًا أو تعبيرًا عن اللاشعور، سواء أكان فرديًا أم جماعيًا. ولا تقتصر مهمة الحلم كما هو فى التفسير الشعبى على التنبؤ بما يمكن أن يحدث فرديًا أو جمعيًا. ولا تقتصر مهمة الحلم كما هو فى التفسير الشعبى على التنبؤ بما يمكن أن يحدث مستقبلًا، خيرًا كان أو شرًا. إن الحلم فى التفسير العلمى تعبير عن تحقيق رغبة أو تهديد لتحقيقها، وهو لغة اللاشعور الذى يعبر عن نفسه أثناء نوم الإنسان. وهذه اللغة تحمل وتتضمن كثيرًا من الدلالات والرموز التى يراها النائم، وقد تدفع به عندما يستيقظ أن يقوم بمحاولة تحقيق ما رآه فى نومه إذا كان فى مقدوره، أو يكتفى بما رآه فى الحلم خاصة إذا كانت نتيجته سيئة.

وتقوم الفئول أيضاً بدور هام فى صياغة فكر الإنسان وسلوكه، خاصة إذا كان الحظ والمصادفة والأحداث العارضة تشكل معلماً من معالم الحياة فى مجتمعه. والفئول - أياً كان شكلها أو الطرق التى يتم بها الحصول عليها، أو التوصل إليها - ضروب من الكشف تحدث تلقائياً أو يبحث الإنسان عنها، وتفسر تبعاً لأنواع من الارتباط الزائف، وتأخذ صوراً شتى. ولا بد لنا من إيراد ملاحظتين تمهيديتين.

أولاً: أن الفئول قد تعلن مثلاً أن ما يفكر فيه الإنسان، أو ما يزعم القيام به سوف يتحقق أو يفشل. فالفأل إذن نوع من جنس يشتمل على أنواع أخرى كثيرة، وهو ضرب من الإعلان عن حوادث مستقبلية. ولا شك أن هذه الصفة تسبغ عليه أهمية بالغة؛ ذلك أن المستقبل لا يزال محتمل الوقوع.

ثانياً: أن هذه الخاصية العقلية ترتبط بالنظرة إلى السببية، وهى سببية من نوع غيبى يتم فيه السعى وراء الكشف عن السبب الخفى، أى عن القوة غير المرئية التى تعلن عن نفسها فيما توحى به من رموز وعلامات، تقوم بإحداث تغيير فى المدركات الحسية.

وهذا هو الذى أسبغ، ويسبغ فى الحقيقة على الفئول أهميتها، وجعل، ويجعل لها تلك الوظيفة التى تقوم بها. والفئول على هذا النحو علامات تكشف مقدماً عما سيتمخض عنه النظام الطبيعى الذى يستعصى على الإنسان فى كثير مما فهمه، خاصة إذا افتقد الإنسان فيه قدرته على فهمه أو التناغم معه. فإذا افترضنا أن

العلامات والإشارات التى يتوقعها الإنسان لم تحدث، أو أنها حدثت ولم يفتن هو إليها، فإن ذلك بالطبع، لا يغير من مجرى الحوادث؛ إذ ليس هناك ما يمنع من تحقق النتائج، ما دامت الأسباب قد وجدت. وعلى ذلك، تظل الفتول شيئاً خارجاً عن نطاق الظواهر الطبيعية. ولما كانت قدراتنا العقلية على التنبؤ العقلى ضعيفة إلى حد كبير، فإننا نتوهم أن قوة أو قوى موائية لنا ترفع حجاب المستقبل أمام بصرنا، وتطلعنا على النتائج التى ستنتهى إليها الظواهر المحيطة بنا. ولا شك أنه إذا تحقق ذلك لنا، فإننا سنعتبره نوعاً من الفضل يرضى تطلعاتنا للمعرفة التى نسعى إليها، ونتمنى الوصول إليها، ولكنه لن يصيب الأشياء من حولنا بأدنى تغيير. إن التوازن الناشئ عن تصور نظام ثابت للعالم بعيد عن تصور الخرافة وعالمها؛ وذلك لأن السببية فيها تختلف عن التصور العقلى لها، وهو ما سبق أن أشرنا إليه، ومن ثم لا بد أن يكون للفتول أهمية كبرى عند الإنسان الذى يشعر أن هذا النظام الثابت الذى تم إقناعه به، ليس ثابتاً، وإنما هو مزعزع الأركان تحكمه قوى أخرى، ربما كان يعرفها، وربما كان يجهلها، لكنه فى كل الأحوال لا يستطيع حيالها شيئاً، أو أن ما يستطيع ليس كافياً، أو قادراً على أن يعيد الأمور إلى نصابها، وأن يحول عدم الثبات إلى الثبات الذى هو القانون الذى يضمن له الراحة والطمأنينة. وللفتول فى هذه الحالة نصيب أساسى فى إحداث ما تعلن عنه، فليست وظيفتها الوحيدة عنده أن تعلن عن هذا الذى سيقع، بل إنها تشترك اشتراكاً

جوهرياً فى إحداث ما تعلن عنه أو تتبى به، ومن ثم تكتسب عادة أهمية كبرى فى تنظيم حياته.

وإذا كان للفئول كل تلك الأهمية، فإن ذلك ليس باعتبارها تنبؤات لا تخيب، وعلامات لا تخطئ، بل لسبب أكثر عمقاً من ذلك بكثير؛ فالفأل الحسن له نصيبه الإيجابى الذى لا يمكن الاستغناء عنه؛ إذ إنه ليس إعلاناً عن تحقيق الخير أو النجاح المأمول فحسب، وإنما هو ضمان لا غنى عنه، أو شرط لا يتحقق كل ذلك إلا به، ومن ثم يتوقع أن يسلك الإنسان السلوك المناسب لما أخبر به الفأل، سعيداً به، مطمئناً إليه. أما إذا كان الفأل سيئاً، كان عليه أن يحتاط لنتائج، وأن يتدبر أمره محاولاً قدر إمكانه التحايل عليه، أو الهرب منه، هذا إذا لم يعتبره قدرًا لا ينفعه إزاءه تحايل أو هرب ومن ثم يستسلم له، وبذلك قد يحقق بسلوكه هذا ما كان يخشاه أو يخافه أو يتشائم منه. وليست العلامات التى تظهرها الحيوانات أو الطيور، أو الظواهر الطبيعية الأخرى، مجرد إشارات ونذر أو إعلان عما سيقع فحسب، وإنما هى أسباب له فى ذات الوقت؛ إذا تحمل هذه الكائنات والظواهر قوى خفية تتوقف عليها الحوادث التى تتبى بها، وتشير إليها. ولا تقتصر هذه العلامات فى الحقيقة على ما تظهره الحيوانات أو الطيور أو غيرها، بل إن هناك علامات يظهرها أو يراها، أو يشعر بها الإنسان نفسه. فعندما «ترف» عينه اليمنى، فهذا علامة خير سيحصل الإنسان عليه، أما إذا كانت اليسرى فإن عليه أن يتوقع شراً أو حدثاً غير سعيد، وإذا أحس بطنين فى أذنه اليمنى، فسيسمع خبراً ساراً، أما إذا أحس به

بقايا الشاي، أو أوراق اللعب، أو الرمل أو القواقع وغيرها، فيما يعرف بقراءة الطالع، أو معرفة البخت.

وقراءة الطالع أو التنجيم ومعرفة البخت أو الحظ لا تختلف في كثير من جوانبها وهي أسسها عما يحاول السحر أو الاعتماد على الفئول أن يقوم به من مساعدة الإنسان على استحداث التوازن، وإشباع شوقه، ولهفته إلى أن يصبح قادراً على أن ينتصر على خوفه وعجزه، وأن يسيطر على المجهول الذي يخشاه، أو المعلوم له لكنه غير قادر على أن يتحكم فيه، أو أن يروضه، لكي يحقق فيه، وبه ما يريد.

وتختلف بالطبع تقنيات قراءة الطالع والتنجيم، وغيرهما من ضروب العرافة، تبعاً لنوع المادة المستخدمة في معرفة الطالع، والكشف عن خبايا المستقبل أو مشاكل الماضي التي تؤثر في الحاضر، وربما انعكست على المستقبل أيضاً. وربما كانت الممارسات التي ترتبط بقراءة الطالع أكثر الممارسات الخرافية شيوعاً «أعرف أن كثيرين لا يعجبهم هذا الوصف.. لكن بماذا يمكن أن نصفها؟»، نصادفها كل يوم في كثير من تجمعات الأهل والأصدقاء، ويتخصص فيها محترفون يشهد لهم بأنهم متمكنون.

وإذا كان السحر والفئول أو قراءة الطالع والأحلام كلها معتقدات وممارسات ووسائل حاول الإنسان بها - وما يزال يحاول - أن يتغلب على ضعفه، وأن يتلافى جوانب قصوره وعجزه، ويفسر من خلالها ما غمض عليه، فإن محاولاته أيضاً للسيطرة على الجن والعفاريت،

تلك الكائنات الخارقة الخفية التي رأى أنه بتسخيرها لإرادته، سواء باستخدام عقله أو بوسائل سحرية، يمكن أن يحقق عن طريقها ما يتمناه، وأن يواجه بها أخطاراً محدقة به أيضاً، والأساطير والحكايات الشعبية مليئة بالأمثلة على ذلك.

تحكى شهر زاد فى الليلة الأولى من ليالى «ألف ليلة وليلة»:

بلغنى أبها الملك السعيد أنه كان هناك تاجر من التجار كثير المال والمعاملات فى البلاد، قد ركب يوماً وخرج يطالب فى بعض البلاد، فاشتد عليه الحر، فجلس تحت شجرة، وحط يده فى خرجه، وأكل كسرة كانت معه وتمر، فلما فرغ من أكل التمرة رمى النواة، فإذا هو بعفريت طويل القامة وبيده سيف، فدنا من ذلك التاجر، وقال له قم حتى أقتلك مثل ما قتلت ولدى. فقال له التاجر كيف قتلت ولدك؟ لما أكلت التمر ورميت نواتها جاءت النواة فى صدر ولدى فقضى عليه ومات لساعته، فقال التاجر للعفريت اعلم أيها العفريت أنه على دين، ولى مال كثير وأولاد وزوجة وعندى رهون، فدعنى أذهب إلى بيتى، وأعطى كل ذى حق حقه، ثم أعود إليك، ولك على عهد وميثاق أنى أعود إليك فتفعل بى ما تريد، والله على ما أقول وكيل. فاستوثق منه الجنى وأطلقه. فرجع إلى بلده وقضى جميع تعلقاته، وأوصل الحقوق إلى أهلها، وأعلم زوجته وأولاده بما جرى له، فبكوا، وكذلك جميع أهله ونسائه وأولاده، وأوصى وقعد عندهم إلى تمام السنة، ثم توجه وأخذ كفنه تحت إبطه، وودع أهله، وخرج رغماً عن أنفه، وأقيم عليه العياط

فى اليسرى، فسيسمع خبراً غير سار، وإذا أحس بأنه يريد أن يحك باطن كفه اليمنى، فسيسلم على عزيز غائب، أو ضيفاً غير متوقع سيحل به، وأما إذا كان الأمر يتعلق بباطن كفه اليسرى، فسيأتيه مال.. وقص الأظافر ليلاً يجلب الشؤم، وكذلك فتح المظلة داخل البيت.. وغير ذلك كثير.

والفضول شأنها شأن كثير من المعتقدات التى تجد أصلاً لها فى الخرافة، تفقد قدرتها وفعاليتها شيئاً فشيئاً كلما ازداد اهتمام العقل بالأسباب الثابتة «أى الطبيعية» حتى تقتصر وظيفتها بالتدريج على وظيفة العلامة التى لا تعود لتكشف عن فعل قوة خفية، بل عما يتحتم أن تودى إليه سلسلة من الأسباب ونتائجها. ومع ذلك فإن العادة العقلية لا تختفى دفعة واحدة، أو فجأة، أمام عادة أخرى تحاول أن تحل محلها، بل تبقى العادتان معاً زمناً طويلاً، دون أن يشعر المرء بتضاربهما. وقد لا تصل العادة الجديدة مطلقاً إلى محو العادة القديمة محو تاماً. وهكذا تستمر الفضول فى الاحتفاظ بشيء من أهميتها القديمة، وإن كانت تفقد ما يعزى إليها من قيمة سببية خاصة، وتقتصر على كونها علامات لما سيقع، والحقيقة أنها إذا كانت قادرة على التنبؤ بما يمكن أن يحدث للمرء، ولو بشكل غامض، وتصدق فيما تنبئ به، فستظل تحظى بالاحترام وهذا ما نصادفه الآن فى المجتمعات والثقافات فيما تنبئ عنه أشكال العرافة، سواء تم ذلك بقراءة الخطوط والعلامات التى ترسمها بقايا القهوة على قاع الفنجان وجوانبه أو

والصراخ، فمشى إلى أن وصل إلى ذلك البستان. وكان ذلك أول السنة الجديدة، فبينما هو جالس ييكي على ما سيحصل له، وإذا بشيخ كبير قد أقبل ومعه غزالة مسلسلة، فسلم على هذا التاجر وحياء، وقال له: ما سبب جلوسك في هذا المكان وأنت منفرد وهو مأوى الجن؟ فأخبره التاجر بما جرى مع ذلك العفريت، وبسبب قعوده في هذا المكان، وقال: والله ما دينك إلا دين عظيم، وحكايتك حكاية عجيبة لو كتبت بالإبر على آفاق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر. ثم إنه جلس بجانبه، وقال: والله يا أخى لا أبرح من عندك حتى أنظر ما يجرى لك مع ذلك العفريت، ثم إنه جلس عنده يتحدث معه، فخشى على ذلك التاجر، وحصل له الخوف والفرع، والغم الشديد، والفكر المزيد وصاحب الغزالة بجانبه. وإذا بشيخ ثان قد أقبل عليهما ومعه كلبتان سلاقيتان من الكلاب السود فسألها بعد السلام عليهما عن سبب جلوسهما في ذلك المكان وهو مأوى الجن. وأخبراه بالقصة من أولها إلى آخرها، فلم يستقر الجلوس حتى أقبل عليهم شيخ ثالث ومعه بقلة زرزورية، فسلم عليهم وسألهم عن سبب جلوسهم في هذا المكان، فأخبروه بالقصة من أولها إلى آخرها. وبينما هم كذلك إذا بغبرة هاجت وزوبعة عظيمة قد أقبلت من وسط تلك البرية، فانكشف الفبار وإذا بذلك الجنى، وبيده سيف مسلول، وعيونه ترمى بالشرر فأتاهم وجذب ذلك التاجر من بينهم، وقال له: قم أقتلك مثل ما قتلت ولدى وحشاشة كبدي، فانتحب ذلك التاجر، وأعلن ثلاثة الشيوخ بالبكاء والمويل والنحيب، فانتبه منهم الشيخ الأول وهو صاحب الغزالة،

وفرشت لها فى المركب فرشاً حسناً، وأقبلت عليها وأكرمتها،
سافرنا وقد أحبها قلبى محبة عظيمة.. إلخ..

وتمضى الحكاية لتحكى أن هذا قد أوغر صدر أخويه علي
فتآمرا على أن يلقوه فى البحر وهو نائم ليأخذوا ماله وزوجته ولك
الزوجة تستيقظ وانتفضت وسارت عفريته، وحملتى وأطلمتى عا
جزيرة وغابت عنى قليلاً، وعادت إلى عند الصباح، وقالت لى أ
زوجتك التى حملتك ونجيتك من القتل بإذن الله تعالى، واعلم أنه
جنية رأيتك فأحبك قلبى، وأنا مؤمنة بالله ورسوله ﷺ، فجئنا
بالحال الذى رأيتى فيه فتزوجت بى، وها أنا قد نجيتك م
الفرق..».

وكان لابد للمسيء أن يجازى على فعله السيئ؛ إذ تصمم الزوج
الجنية على إغراق أخويه، لكنه يرفض فتحمله إلى داره، ثم تذهب
وتعود بأخويه مسحورين كلبتين..

وهذه الحكاية تعد نموذجاً مثالياً لكثير من المعتقدات الخرافة
التي تحيط بالجن والعفاريت والسحر، والعلاقات التي تنشأ بين
الإنسان وتلك الكائنات الخارقة. فقد تكون العلاقة سلبية، ينته
فيها الجنى أو العفريت من الإنسان لضرر ألحقه به، كما حدث م
رغبة العفريت وإصراره على الانتقام من الرجل؛ لأنه قتل ابنه، رة
أنه لم يكن يعرف، ولم يكن يقصد ذلك. وقد تكون علاقة موا
ورحمة، لأن الإنسان أسدى معروفًا إلى جنى أو جنية، كما تصر

الحكاية الثانية عندما أحسن التاجر إلى فتاة رآها فقيرة تطلب عونهُ ومساعدته فرق قلبه لها، ثم أحبها وتزوجها، وإذا بها جنية، تنقذه من غدر أخويه، ثم تعاقبهما بسحرهما كليتين. وقد تكون العلاقة أيضاً علاقة تحالف ضد عدو، وهو ما يمكن أن تشير إليه الحكاية السالفة الذكر.

على أية حال ما يزال الاعتقاد في الجن والعفاريت، والحيوانات الغريبة كالفيلان، وما إليها حظاً مشتركاً بين كثير من الناس، وفي كثير من المجتمعات، خاصة في مجتمعاتنا العربية. ومما يستلفت النظر - حقيقة - أن الاعتقاد في الجن والعفاريت أكثر انتشاراً بين النساء منه بين الرجال في مجتمعاتنا، وربما كان مرجع ذلك إلى الظروف التي تعيش فيها المرأة في هذه المجتمعات. فالذي لا شك فيه أن كم الضغوط المجتمعية المفروضة على المرأة تحرمها من كثير من حقوقها في أن تعبر عن نفسها، وعن حاجاتها الإنسانية الطبيعية مما يجعلها أرضاً خصبة تنمو فيها مثل هذه المعتقدات، ويجعل لجوئها لحل مشاكلها إلى الجن والعفاريت أمراً طبيعياً إذا أعوزتها الحيل كي تغير واقعها، أو تقنع من حولها بما تفكر فيه أو تشعر به، أو تريده باعتبارها إنساناً، لا شيئاً يتحكم فيه غيره، ويحدد له استخداماته، وما يصلح له وما لا يصلح. مرة أخرى، إنها «قلة الحيلة»، تلك التي تدفع المرأة إلى اللجوء إلى «الأعمال»، وإلى «الزار» وإلى «الأحبة».. لمواجهة الظلم والقهر الواقعين عليها.

وقبل يد العفريت، وقال له: يا أيها الجنى وتاج ملوك الجان، إذا حكيت لك حكايتي مع هذه الغزالة، ورأيتها عجيبة أتهب لى ثلث دم هذا التاجر؟ قال: نعم يا أيها الشيخ، إذا أنت حكيت لى الحكاية، ورأيتها عجيبة، وهبت لك ثلث دمه، فقال الشيخ الأول: اعلم أيها العفريت أن هذه الغزالة بنت عمى، ومن لحمى ودمى، وكنت تزوجتها وهى صغيرة السن.. إلى آخر الحكاية التى نعرف منها أن ابنة عمه هذه قد سحرت غزالة جزاء ما ارتكبته من جرم، وبنهاية حكاية الشيخ الأول يهب الجنى ثلث دم التاجر للشيخ، فيتقدم الشيخ الثانى ويفعل ما فعله الأول أملاً فى أن يهبه الجنى الثلث الثانى، وكذلك يفعل الثالث فينجو التاجر. ونعرف من الحكاية الثانية أن الكلبتين أخان له، لم يعترفا له بجميله الذى أسداه لهما وحاولا قتله، ويهمن أن نورد الجزء التالى من الحكاية.. أما ثلاثة الآلاف دينار الأخرى، فأعطيت كل واحد منهم ألف دينار، وجهزنا بضائع واكثرنا مركب، ونقلنا فيه حوائجنا، وسافرنا مدة شهر كامل إلى أن دخلنا مدينة وبنا بضائعنا، فريحنا فى الدينار عشرة دنانير، ثم أردنا السفر، فوجدنا على شاطئ البحر جارية عليها خلق مقطع، فقبلت يدى، وقالت: يا سيدى هل عندك إحسان ومعروف أجازيك عليهما؟ قلت: نعم إن عندى الإحسان والمعروف ولو لم تجازينى. فقالت: يا سيدى تزوجنى وخذنى إلى بلادك فإنى وهبتك نفسى، افعل معى معروفًا؛ لأننى ممن يصنع معه المعروف والإحسان ويجازى عليهما، ولا يفرنك حالى. فلما سمعت كلامها حن قلبى إليها لأمر يريده الله عز وجل، فأخذتها، وكسوتها،

ومن أهم الممارسات التي تلجأ إليها المرأة للشفاء من مرض
نفسى . يدعى دائماً أنها لابسها أو راكبها عفريت . بسبب حرمانها
من الزواج، أو فشلها فى حياتها الزوجية، أو لأسباب أخرى تمنعها
المحرمات الاجتماعية من التصريح بها، وإلا اتهمت بما هو أبشع
وأفظع مما تعانيه، إقامة «زار» تتخلص به، وعن طريقه من آلامها
ومسبباتها التي قد لا تدريها أو تعيها.

والزار حفل لإخراج الجن والعفاريت والأرواح الشريرة من
الجسد الذى تلبسته أو تهمسته، وكانت السبب فيما أصاب التى
تقيم الزار من مرض. وتأخذ حفلة الزار شكلاً طقسياً له أصوله
وقواعده وطرقه ومستلزماته، والمتخصصون فى إقامته، وهم
محترفون عادة. ويدعى هؤلاء أنهم قادرون على الاتصال بتلك
الكائنات الخارقة والأرواح ، وأنهم يعرفون ملوكها وأمراءها، وأنهم
على صلة بهم تجعلهم ينفذون ما يطلب منهم.

وبالطبع فإن الزار لا يشفى من المرض، سواء أكان المرض
حقيقة أم ادعاء، كما لا يمكننا تصور أنه يطرد الجن، أو يخلص
الجسد مما تلبسه من أرواح شريرة؛ إذ إنه فى الحقيقة عبارة عن
عملية تظهير للنفس، وتفريج عما أصابها من آلام، وتخليص لها من
ضغوط قاسية، يساعد على ذلك الجو والإطار الذى يتم فيه عقد
حفلة الزار.

إن المشاركات فى الحفل يتصرفن بحرية كاملة؛ يتميلن،
ويرقصن، ويقفن، وقد يمزقن ثيابهن.. إنهن باختصار يتحررن من

كل ما يكبح رغباتهن، ويثقل عليهن، فى حدود ما يتيح الحفل، يساعدهن على ذلك دق الدفوف العنيف، ورائحة البخور النفاذة.. إنه نوع من التمرد الذى تمارسه المرأة، وتعبّر من خلاله عن رفضها المؤقت لكل أشكال التسلط الواقعة عليها.. أليس يكفيها أنها واقعة تحت سلطة جنى أو عفريت؟!! وأنها تريد التخلص منه، والشفاء من الآلام التى تعانى منها!! وهنا لعلنا نستطيع أن نضع ذلك العفريت أو الجنى معادلاً رمزياً للسلطة القائمة فعلاً، والتى لا تستطيع إزاءها الكثير، أو لعلها لا تستطيع إزاءها شيئاً على الإطلاق!!!

إن هناك عددًا لا يحصى من الأشياء والظواهر التى تقع خارج نطاق الفهم الإنسانى، وعندما يكون على الإنسان أن يواجه هذه الأشياء التى عجز عن فهمها، فليس أمامه إلا أن يستخدم صورًا وتعبيرات رمزية يمثل بها تلك المفاهيم التى لا يكون قادرًا على تحديدها، وإدراكها إدراكًا كاملاً. وهذا فى حقيقة الأمر هو أحد الأسباب التى تجعل الأساطير والخرافات توظف لفة أو صورًا رمزية، تمين الإنسان على سد تلك الفجوة الواقعة بين ما لا يفهمه، وما هو غير قادر على إدراكه، وبين واقعه الذى يعيش فيه. لكن هذا الاستخدام الواعى للرمز ليس إلا مظهرًا واحدًا من مظاهر حقيقة سيكولوجية ذات أهمية كبيرة، وهى أن الإنسان ينتج أيضًا بشكل طبيعى، ودون وعى، رموزًا فى شكل خرافات، تظهر فى كل أنواع التجليات النفسية، وتمثل دائمًا أشياء أكثر من مجرد معناها الواضح المباشر.

وعلى ذلك، فالجن والعفاريت والأرواح الشريرة فى مثل هذا الطقس يمكن اعتبارها رموزاً للشر والتمرد باعتبارها هى المتسببة فى المرض أولاً، ثم إن الممارسة فى الزار تشكل نوعاً من التمرد على القيود الاجتماعية وغيرها، لكن المجتمع - مع استكاره لها - يقبلها، ويبررها لأن هذا - على أية حال - أهون الشرور التى يمثلها تمرد حقيقى، يزلزل أركانه، وكثيراً من مسلماته وثوابته.

وفى الجانب المقابل يقف الأولياء والقديسون، وتقف أضرحتهم التى يقصدها الناس لالتماس البركة، والتوسل بأصحابها لجلب الخير، ودفع الشر. ويصبح هؤلاء الأولياء والقديسون الملجأ الذى يلجأ إليه كل مظلوم عجز عن الحصول على العدل، وأعوزته السبل إلى تحقيقه، وملاًداً يستغين به كل صاحب حاجة لقضاء حاجته، وتيسير أموره التى عجزت المؤسسات الرسمية عن تيسيرها.

لقد خلق الناس هؤلاء الأولياء والقديسين، ونسبوا إليهم الكرامات والأفعال التى يعجزون هم عنها، فالسيد البدوى مثلاً «جلاب اليسرى» أى الأسرى، وسيدى إبراهيم الدسوقي هو الذى يُجير المظلومين، ويساعد على شفاء المرضى.. وتتسج بالطبع حول الأولياء قصص وحكايات تغنى فى الاحتفال بمناسبات مولدهم، وتصور هذه الأجزاء من أغنية طويلة عن سيدى إبراهيم الدسوقي نموذجاً لما يشيع من معتقدات حول الأولياء:

المدد يا سيدى إبراهيم.. ياللى ما هُتُ العيَّان

المدد يا سيدى إبراهيم.. ياللى ما هُتُ المنضام..

واللى يعدى على بحر الشام.. بتجده يا دسوقى قوام..
ولو كان غرقان وسط البحار^(١).

فالدسوقى لا يترك مريضاً دون مساعدة على شفائه، ولا يدير ظهره لمن أصابه ضيم أو ظلم، وينقذ المشرف على الفرق، حتى لو كان بعيداً عن مصر..

وترد فى الأغنية صور لميلاده الخارق، وطفولته المعجزة، على النحو التالى:

وليلة رُوحت ع الدار.. تجرى والعرق تيار
تسمع فى بطنها الأفكار.. من قبل ما يظهر ويَبَانْ
لما كمل تسع شهور.. جاها النبی فى البيت يزور
قاموا حواليتها بنات الحور.. ووَكَّدوها: شيخ الإسلام
وَلَدوها سيدى ابراهيم.. وفرشوا لها الفرش حرير
قالوا لها يا ام ابراهيم.. عين الحسود خلقت من نار.^(٢)

وتمضى القصة لتحكى عن ميلاد هذا الولي وكراماته التى بدأت منذ ميلاده؛ فقد ولد فى رمضان، وبدأ حياته بصوم هذا الشهر الكريم، ونطق ولم يكن قد بلغ يومين من العمر:

(١) المدد: كلمة تقال لالتماس المون خاصة من الأولياء - ياللى: يا من - مافت: لم تترك - العيان: المريض - المنضام: الذى أصابه ضيم (المظلوم) - يعدى: يعبر - بتجده: تتقذه - قوام: بسرعة.

(٢) ليلة: أم إبراهيم الدسوقى - بيان: يصبح واضحاً - جاها: جاءها - حواليتها: حولها.

لَمَّا كَمَلَ الْيَوْمِينَ. يَا حَاضِرِينَ صَلُّوا عَلَى الزَّيْنِ..

قَالَ أَنَا إِسْمَى سَيِّدَى إِبْرَاهِيمَ..

مُحِبُّوبِ النَّبِيِّ وَأَنَا لَسَهُ صَفَارٌ..

أَمَّا عِنْدَمَا اكْتَمَلَ مِنَ الْعُمُرِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ:

وَلَمَّا كَمَلَ عَشْرَ أَيَّامٍ.. قَرَأَ الْحَمْدَ مَعَ الْبَقْرَةِ..

مِئَةً وَأَرْبَعَةً وَعَشْرَةَ.. سَيِّدِكَ إِبْرَاهِيمَ حَمَلَ الْقُرْآنَ

ثُمَّ تَحَكَّى الْقِصَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ حَيَاتِهِ الْمَلِيئَةِ بِالْكَرَامَاتِ،
وَالْأَعْمَالِ الَّتِي يَعْجَزُ عَنِ الْقِيَامِ بِهَا الْبَشَرُ الْعَادِيُونَ.

لَا تَكَادُ قَرْيَةٌ فِي مِصْرَ أَنْ تَخْلُوَ مِنْ ضَرِيحٍ لَوْلَى مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ
الصَّالِحِينَ، بَلْ قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ أَكْثَرُ مِنْ وَلِيٍّ تَبَعًا لَعَدَدِ الْعَائِلَاتِ
الْكَبِيرَةِ فِي الْقَرْيَةِ، فَفِي الْقَرْيَةِ الَّتِي وَلَدَتْ فِيهَا وَلِيَّانَ لِلْعَائِلَتَيْنِ
الْكَبِيرَتَيْنِ فِيهَا. أَمَّا الْمَدَنُ فَعَدَدُ الْأَوْلِيَاءِ فِيهَا كَبِيرٌ، وَيَقَامُ لَهُؤُلَاءِ
وَأَوْلَئِكَ الْمَوَالِدُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَيَقْصِدُهُمُ النَّاسُ لَوْفَاءِ النُّذُورِ،
وَالْتِمَاسِ الْبَرَكَةِ. وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ لَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَى
مُجْتَمَعِنَا فَحَسَبٍ؛ فَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَجْتَمِعَاتِ الْآخَرَى يُعْتَقَدُ كُلُّ
إِنْسَانٍ فِي قَدِيسٍ يَرْتَبِطُ بِهِ، مُعْتَقِدًا أَنَّهُ يَحْمِيهِ وَيَرْعَاهُ.

وَقَدْ ذَكَرَ النَّجَّاحُ السَّبْكِيُّ فِي طَبَقَاتِهِ الْكَبْرَى^(١) أَنَّ أَهَمَّ الْكَرَامَاتِ
أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ، مِنْهَا: الْمَشْيُ عَلَى الْمَاءِ، وَالتَّحَدُّثُ مَعَ الْحَيَوَانَاتِ

(١) نَقْلًا عَنْ د. إِبْرَاهِيمَ بَدْرَانَ، وَد. سَلْوَى الْخَمَّاشِ، دَرَاسَاتُ فِي الْعَقْلِيَّةِ الْمَرْبِيَّةِ
بَبْرُوت، دَارُ الْحَقِيقَةِ ١٩٧٤، ص ١٢٥.

والجمادات، والقدرة على جعلها طائفة له، مستجيبة لما يطلبونه منها، وتجاوز الزمان والمكان، وإبراء الأمراض والعلل، والاستجابة للدعاء، والإخبار عن بعض المفيبات، والكشف عن المجهول، والصبر على عدم الطعام والشراب، ورؤية المكان البعيد من وراء الحجب، وأن الله يكفيهم الشر، ويطلعهم على ذخائر الأرض.. إلخ.

وعلى ذلك، فالأولياء يمتلكون قدرات لا يملكها الإنسان العادى، كرمهم الله وحباهم بها، لما يتميزون به من خير، ومرة أخرى تبدو هذه القدرات كأنها معادل رمزى. أو الوجه الآخر. لما ينقص الإنسان العادى ويتطلع إلى تحقيقه وامتلاكه من إمكانات. ولا نغنى هنا بالطبع أن يمتلك الإنسان القدرة على المشى على الماء، أو الحوار مع الحيوانات والجمادات، أو غير ذلك من قدرات، وإنما المقصود أن يكون الإنسان قادرًا على فعل الصعب أو الذى يبدو عسيرًا مستحيلًا، وهو على أية حال إذا لم يستطع ذلك - وهو بالتأكيد لا يستطيع - نتيجة ظروفه، فيلجأ إلى من يستطيع أن يقوم به، يوكل إليه أمره، ويستعين به على قهر الصعاب، وتحقيق ما يبدو مستحيلًا، وهو على ثقة تامة بأنه سيفعل ذلك نيابة عنه، أو أنه سيساعده على تحقيق ما يأمله؛ لأنه خير، ولأنه قريب إلى الله، والله مع المظلوم والمفلوب، وطيب القلب، ونقى السريرة، والمحتاج، وهو يتوسل إلى هؤلاء الخييين بالدعاء، وتقديم النذور، والزيارة، وكل ما من شأنه أن يوثق علاقته به، ويستميله إليه، ويجعله يقف إلى جانبه، وأن ينصره.

وينشأ حول أضرحة الأولياء ومقاماتهم طائفة من الناس، يقومون على خدمة المقام أو الضريح، ويقوم هؤلاء بدور مهم للغاية في التزويج لكراماتهم وقدراتهم وتخصصاتهم أيضاً. فهناك وليّ اشتهر بمساعدة العاقر، وآخر لرفع الظلم، وثالث للاستجابة للشكاوى وتحقيقها ورد الحق إلى صاحبه، أو مساعدته في الحصول عليه، ورابع لإبراء الأمراض. ولا يعنى هذا أن الولي المتخصص لا يمكنه المساعدة في حل المشكلات الأخرى التي قد يواجهها الإنسان، وإنما المقصود أن بعضهم قد عُرِفَ عنه قدرته في هذا المجال أكثر من غيره من المجالات. وهناك أولياء تتجاوز قدراتهم قضاء حاجة واحدة أو عدة حاجات؛ لأن كراماتهم تشمل كل شيء وهؤلاء هم الأولياء الكبار.

ويرتبط بقضاء الحاجات أدعية خاصة بكل حاجة، يلقنها القوامون على أمر الضريح للمتريدين عليه، فهناك دعاء خاص لمن يريد الإنجاب، وآخر لدفع الظلم، وثالث للشفاء، ورابع لترقيق القلب، وهكذا..

وهذه الأدعية تستخدم لغة خاصة تبدو كأنها وسائل سحرية للتأثير على الولي/ القوة، والتقرب إليه، والتماس العون للخلاص من الأزمة أو الأزمات التي يعاني منها الفرد الذي يتوجه بالدعاء. فالإنسان استخدم الكلمة المنطوقة والمكتوبة ليعبر عن معنى يريد نقله، وفي هذه الحالة - حالة الأحجية والتمائم والتعاويذ - تصبح اللغة رموزاً لها قدرات سحرية.

وقد تبدو هذه الرموز غير ذات معنى محدد، إلا أنها تكتسب معانى يمكن إدراكها من خلال الاستعمال الشائع أو الفرض المقصود. وهذه الرموز ليست رموزاً فردية، بل هى رموز جمعية فى منشئها وطبيعتها واستخدامها، كما أنها فى المقام الأول صور دينية، يفترض المؤمن أنها ذات أصل مقدس، ومن ثم فهى تُكسب المضمون الذى تعبر عنه قداسة ومصداقية، يعتقد أن تعين على التحقق والاستجابة، مما ينتج عنه شعور بالاطمئنان والرضى لدى من يدعو، وتعطيه القناعة بأن هناك من سيتولى عنه تخليصه من مشكلته أو على الأقل سوف يساعده على حلها.

إننا نستطيع القول إن الإنسان المعاصر قد اكتسب قدراً كبيراً من القدرة، وقوة الإرادة يستطيع أن يطبقها حيثما شاء وكيفما شاء، لتحقيق ما يشاء، كما تعلم أيضاً أن ينجز عمله بكفاءة وإتقان دون أن يستعين على ذلك بالتراتيل أو نقر الطبول، وتم إقناعه أن بإمكانه أن ينفذ ما يعتزم فعله، وأن بإمكانه أيضاً أن يترجم أفكاره وخواطره إلى أفعال، لكنه مع كل ذلك عرف أيضاً أنه يمكن أن يعاقب فى كل خطوة بالمحاذير، والمخاوف، والقوى والعقبات غير المرئية التى تعوقه عن الفعل، وتسلبه القدرة على توجيه حياته، فلا يصبح أمامه من وسيلة إلا أن يحلم بالخلاص، أو يلجأ إلى الاستعانة بقوى خفية لمواجهة قوى غير مرئية، أو الدعاء إلى الله: اللهم إنا لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه.



خرافات :

ونورد هنا طائفة من المعتقدات الخرافية التي تشيع في المجتمع المصري، وما يصحبها من عادات، وما يحققها من سلوك وأدوات. وتقتضى الأمانة أن نذكر هنا أن هذه المعتقدات ليست وقفاً على المجتمع المصري وحده، وإنما هي حظ مشترك بين كثير من المجتمعات الأخرى، العربية وغير العربية، قد تأخذ شكلاً معيناً هنا، وترتدى زياً آخر هناك.. لكنها في كل الأحوال موجودة، بين المتعلمين وغير المتعلمين، وفي كل الطبقات.

إن كثيراً من الناس يعتقدون في الجن، وأن كثيراً من الشرور إنما تصيبهم منهم، وأنهم يظهرون في الليل عادة، ويسكنون المقابر

والبيوت المهجورة ويقذفون من يشاء حظه العاثر المرور بجوار تلك المقابر والبيوت بالطوب والحجارة. وأنهم يتشكلون بأشكال مختلفة، لكن الغالب عليهم أنهم يظهرون فى صور قطط أو كلاب سوداء، ولذلك يتحاشون ضرب القطط والكلاب أثناء الليل. وإذا تصادف وجود قط غريب ليلاً فى بيت من البيوت شكوا فى أنه جنى، وراقبوا حركاته وسكناته، وفسروا تلك الحركات والسكنات تفسيرات مختلفة، ولم يمنعه شياً، فإذا أكل طعاماً من طبق تركوه يأكل كما يشاء، ولم يزعجوه أو يطردوه، ذلك أنهم يعتقدون أنهم إذا ضربه أو أبعده أصابهم بالشر وانتقم منهم. وهم يزعمون أنهم يفعلون ما يشاءون أحراراً طوال العام إلا فى شهر رمضان فهم يحبسون فيه، ويمتنع عن الناس أذاهم وشرهم، وأنهم يتصرفون كما يتصرف الناس، ويفعلون ما يفعلونه، وأن بعضهم يقيم علاقة مع الإنس، فقد تحب جنية إنسياً، وقد يعشق رجلاً جنية. ويذكر أحمد أمين أنه عرف رجلاً كان كثير الصمت، قليل الكلام، تبدو عليه كثرة التفكير، وأنه كان يزعم أن جنية تعشقه، وأنها لذلك منعتة من الزواج، وحرمتة عليه، وأنها تأتيه كل ليلة فيختلى بها. وأنه عرف سيدة تعتقد أنها لبسها الجن بسبب أن أحد خدمها ضرب قطاً أسود ليلاً، فعاد القط شديد الصياح، ثم اختفى، فخافت من أن يكون جنياً فيؤذيها، وهذا ما كان. كما يذكر أن صديقاً له اشترى بيتاً رخيصاً فى المعادى؛ لأن صاحب البيت كان قد قتل، فسكنته المفاريب، فبيع بنصف ثمنه. ويحكى أنه فى عهد محمد على، ادعت امرأة أن الجن تقمصها ففتت الجنود، وكثر اعتقادهم فيها،

حتى استقفل أمرها، فخاف محمد على من ذلك، واستدعاها إلى قصره، وكان الوقت ليلاً، فأمر بإطفاء الأنوار، وادعت أنها تحضر الجنى فحضر، وتكلمت بكلام رجل كان الصوت يخرج من بطنها، فأطراها محمد على على فعلها، وأمرها أن تقرب منه حتى يقبل يدها، فلما مدت يدها قبض عليها وأمر بإضاءة الشموع، فرأى أنها المراق، وأنه لا وجود لجنى، وأن الأمر كله خدعة. عندئذ أمر بإلقائها فى النيل، فجزع الجند الحاضرون، إذ كانوا يظنون أنها من أولياء الله الصالحين، وأن ما أمر به محمد على خروج على الدين فقال لهم محمد على لا تجزعوا لو كان الجن معها لأخرجوها من التيل، ولو كانت مدعية ادعاء باطلاً فقد استرحنا منها. فلما ألقيت غرقت، واستراح الناس منها.

كما يروى أنه كان يعيش قريباً منهم رجل يسمى الشيخ أحمد الصبان، يبيع الفحم على باب الحارة، ثم أصابه العمى والفقر، فسكن فى غرفة ضيقة، وشاع أن جنّاً تقمصه، وأنه يكشف المخبوء، ويتكلم بصوت غير صوته الطبيعى، فقصده الناس من كل حطب وصوب، وصلح حاله.

ويعتقد أن الجن يأكلون ويشربون، ولذلك اعتاد البعض، إذا توهم أن مرضه إنما جاء من غضب الجن عليه، أن يذيب فى الماء نوعاً من السكر الأحمر فى إناء بعد صلاة العشاء ليلة الجمعة، ويأخذ المريض ذلك الإناء، وينيب عنه من يصعد به إلى سطح البيت وهو ساكت لا يتكلم، ولا يلتفت يميناً أو شمالاً أو إلى الوراء،

وعندما يصل إلى السطح يقلب الإناء بما فيه على الأرض ولا يذكر اسم الله وهو يريق ما فى الإناء، ثم يترك الإناء، ويهبط كما صعد، وهم يزعمون أن الجن تشرب هذا الماء، ويكررون هذا الأمر ثلاثة أسابيع على الأقل، فقد يرضى عنه الجن فيشفى...

ويزعمون أنهم يتعرضون للإنسان إذا سار وحده بالليل، وقد يتشكل الجنى بشكل حذاء قديم بال، وأن الإنسان إذا لقي الجنى وضربه بسلاح أو رماء برصاصة فأصابته، يصير حذاء قديماً، ولذلك يكثر استخدام الحذاء القديم تعويذة أو حجاباً يعلقونه على رعوس الخيل، أو الحمير، أو الجمال، أو مؤخرة السيارة، معتقدين أن ذلك يمنع الحسد وتأثير العين ويرون أن الحذاء القديم لا يصلح إلا إذا وجد ملقى فى الطريق، لم يعرف له صاحب. ويعتقد أيضاً أن سبب المرض الذى يصعب معرفة سببه أن جنياً أو جنية لبست المريض، وأنه لكى ييرا من مرضه لابد أن يخرج منه الجنى أو الجنية التى لبسته، ولن يحدث هذا إلا بإقامة «زار».

وعلى أية حال يشيع الاعتقاد بأن المفاريت - الجن - تتقمص الرجال والنساء، وإن كانت تتقمص النساء أكثر من الرجال، فإذا تقمصتهم نطقت على ألسنتهم بأصوات غريبة، وأخبرت بأشياء عجيبة، وتنبأت بتنبؤات مستقبلية.

ويعتقد أيضاً أنه يمكن تسخير الجن، وأن بعض الناس يمتلكون القدرة على ذلك لمصلحتهم أو لمصلحة من يريد، وهناك من يرتزقون من وراء شيوع هذا الاعتقاد. ومن الملاحظ أنه فى

السنوات الأخيرة انتشرت كتب كثيرة تتحدث عن الجن، وصفاتهم، وأحوالهم، وقدراتهم، وطرق التعامل معهم، والتماس خيرهم، واكتفاء شرهم، وتلقى هذه الكتب رواجًا كبيرًا بين كافة طبقات المجتمع. بل إن الصحف قد نشرت تحقيقات صحفية عن زيجات بين جن وإنس، وقضايا مرفوعة أمام المحاكم بسبب هذه الزيجات!!

وهناك طرق كثيرة لتسخير الجن من أهمها استخدام الحروف، إذ يعتقد أن للحروف أسرارًا، عندما تكتب في صور مخالفة للحروف المألوفة، ويسمونها حروفًا روحانية أو علوية، ويزعمون أن لكل حرف خادمًا أو خدامًا يحافظون عليه، كما يزعمون أن لكل يوم من أيام الأسبوع جنًا تغلب عليه ويعرفها من هو أهل لها. وأن من أراد أن تخدمه الجان فإنه يصوم أربعين يومًا في خلوة لا يأكل إلا خبز الشعير والزبيب الأسود، ولا يأكل إلا كل أربع وعشرين ساعة، ثم يتلو المزامن التي يستحضر بها الخدام، والخدام الأول عبد أسود وفي يده حجر أحمر وعزيمته «يانبوح.. دردموخ.. أجيبوا بحق سمعاط شموع.. برهوت.. برهين.. اسحيم» تقرأ ألف مرة، وكذلك بقية الخدام الأربعين.

ويعتقدون في خاتم سليمان «عليه السلام» وهو على شكل النجمة السداسية، وبواسطته يتم استخدام الجن وإخضاعهم، اعتقادًا منهم أن بواسطته استخدم سليمان الجن فحملت له البساط، وبنت له البلاد، وقطعت الأحجار، وفجرت له الآبار،

وأجرت له الأنهار. ومن الكتب المشهورة فى هذا الموضوع «السر
الربانى فى العلم الروحانى»، و«شموس الأنوار وكنوز الأسفار»،
و«البهجة اللماعة فى تسخير ملوك الجن فى الوقت والساعة»،
و«الفتح الرحمانى فى العلم الروحانى»، ومئات غيرها.

وتستخدم كلمة «الأسياء»؛ لتدل على الأولياء، ولتدل أيضاً على
الجن والعفاريت، الذين يتقمصون جسم الإنسان، وخاصة النساء،
ولهم فى ذلك تعبيرات متعددة مثل «جنته مش خالصة»؛ «أى أن
جسمه ليس حرّاً، وإنما استبد به أحد الأسياء»، و«راكبه عفريت»،
«أى أنه ركبه عفريت»، و«عليه أسياء». ويزعمون أن لكل سيد من
الأسياء ملابس تتناسب جنسه، وأغان تتناسب لفته، ورقصات تتناسب
أتمه، ودقات على الدف تتناسب تلك الرقصات. وتقام الاحتفالات
الخاصة؛ كى يتم التخلص من هؤلاء الأسياء بتلبية مطالبهم فيما
يسمى بالزار، فإذا كان الذى سيطر على المرأة واحداً من الأسياء
الأحباش، ارتدت المرأة زياً حبشياً، ورقصت رقصة حبشية، وغنى
لها القائلون على أمر الزار بالحبشية، فإذا حضر «السيد»، «جناً»
كان أو ولياً» تحدث على لسان المرأة بالحبشية، وهكذا إذا كان
عربياً أو سودانياً أو خواجه «أى أوروبياً». ومن أجل هذا ينبغى أن
يتوفر للمرأة التى تلبسها الأسياء ملابس خاصة بالزار، وحبياً
خاصة بالاحتفال تتناسب مع السيد الذى تقمصها.

وتسمى شيخه الزار «المرأة التى تقود الاحتفال وتديره»
بالكُدية. ويبدأ الطقس أو الاحتفال بأن تضع الكُدية كرسياً فى

وسط المجلس، تجلس عليه السيدة التى يقام الزار من أجلها، وتحضر تحضير دجاجةتين، وديكاً، وتربط أرجلها، ثم تضع الديك على رأسها، والدجاجةيتين على أكتافها، ثم تتلو قراءات معهودة، وتتشد أناشيد، وتغنى أغانى، بينما تردد الحاضرات جميعاً «دستور يا اسياى.. مدد لله يا اسياى»، والكُدية وأعوانها يضرين الدفوف، ويغنين على نغمات مختلفة، ثم يقترن شيئاً فشيئاً من صاحبة الزار، ويسرعن فى الدق وصاحبة الزار راكعة أمامهن، ثم تجيء إحداهن ومعها ملابس الأسياى، وهى عباءة مزركشة بالقصب، وطربوش أو عمامة أو طاقية مزينة، وسيف وخنجر، فتتقلد السيف وتمسك الخنجر بيدها، وتقف متمائلة أمام ذلك الجمع، والدق على الدفوف يزداد عنفاً والغناء يزداد صخباً، ثم تقف صاحبة الزار وتقول السلام عليكم، فيقال لها: أهلاً وسهلاً، من أنت؟! فترد قائلة - مثلاً - أنا الشيخ عبد السلام، فيضرب على الدف حينئذ نغمات تسمى «دقة الشيخ عبد السلام»، وتبدأ صاحبة الزار فى التمايل والرقص على دقة الشيخ عبد السلام حتى إذا انتهت «الدقة» قامت الكُدية بتدليك صاحبة الزار، فيذهب الشيخ عبد السلام إلى حاله، ثم تدعى صاحبة الزار أنه قد لبستها زوجة الشيخ عبد السلام، فتغير من صوتها، وتحى السيدات المشاركات، على لسان زوجة الشيخ عبد السلام، فيحضرن لها ملابس نسائية تناسب زوجة الشيخ عبد السلام، وكذلك الحلى من أساور وعقود وخواتم وخلاخيل.. إلخ، ثم يبدأ فى الضرب على الدفوف «دقة زوجة الشيخ عبد السلام».

أما إذا كان الشيخ - السيد - غير معروف أو محدد، فإن الكُدية
والمفنيات يبدأن في تجربة عدة نفمات «دقات»، كل منها تختلف
عن الأخرى، وعند كل «دقة» تلبس صاحبة الزار ما يناسبها حتى
تبدأ في التمايل والرقص على واحدة منها، مما يعنى أنه تمت
معرفة أى نوع من الأسياذ قد تقمصها أو لبس جسمها، فإذا كان
نجدياً «من نجد»، تضمنت الأغنية أو الدقة ما يلى:

يا سيد نجد.. يا لابس سيفك.. يا محيى ضيفك.

يا مدّلع فى الميدان.. ومكحل عيونه.. وراخى شعوره..

وإذا كان سودانياً، قيل فى اللهجة السودانية:

يا أبو العباس.. يا سلطان الرجال.. يا حامى الرجال..

يا مرحباً بك.. يا مرحباً.. يا لابس الكوفية على العمامة.

وبالطبع فإن هناك «دقات» يبدأ بها، من مثل:

صلوا عليه.. النبى العريى.. صلوا عليه..

ماما الهدى.. آه يا ماما.. بدرالتمام يا محمد

نصبوا الكراسى لماما.. بّر السماح لماما.. بر الهدى لماما..

صاحب العوايد ماما.. صاحب الدبايح ماما.. نصبوا الميدان يا

ماما آه يا زهر الورد يا ماما..

.....

سلام على أم غلام.. يا مرحباً يا أم غلام..

سلام على أم غلام.. يا مرحبا يا أم غلام..
 ردُّوا السلام.. على أم غلام.. يا بنت ماما.. يا أم غلام..
 يا أم غلام.. والعفو منك..
 يا أم الغلام.. بيني برهانك
 يا أم الغلام.. واشفى عيانك..
 يا أم الغلام.. والطبل طبلك..
 يا أم الغلام.. والليله ليلتك.
 ولهم أيضاً أغانٍ تؤدى عند إطلاق البخور الذى يصاحب
 احتفال، منها:
 اتكلنا على الله والنبي.. والفاتحة لعمر وعثمان وعلى والعشرة
 تدركين بكل ولى..
 وملوك السما وملوك الأرض.. والشهدا والصالحين..
 واللى انقفل عليهم الدرب..
 وملوك البر.. وملوك البحر.. واخواننا
 يجعلهم راضيين عنا
 الفاتحة لستى سكينه.. وسيدى محمد الخواص..
 الفاتحة لستى سكينه.. صاحبة الليلة العظيمة..
 الفاتحة لسكان المغرب.. عويشة لله..

والسادات والبكرية ... والخضر والياس ..

سلام لهم وعليهم.. وكمان الفاتحة على سلطان الحبش..

كبير مع صغير .. شيء لله .. ولهم الفاتحة.

ولا يقل الاهتمام بقراءة الطالع وتأثير النجوم على الإنسان من سعادة وشقاء، وغنى وفقر، ونجاح وفشل عن الاهتمام بالجن والممارسات المرتبطة بهم.

ويعتقد أن لكل إنسان برجاً من الأبراج الاثنتى عشرة ولد فيه، وهو الذى يتحكم فى كثير من أمور حياته، ويصنعون لذلك جدولاً فيه أسماء البروج، فإذا أراد إنسان أن يعرف طالعه أو بخته أغمض عينيه، ووضع إصبعه على خانات البروج، وهى صورة مقسمة إلى خانات، ثم يفتح عينيه، ويتبع الخط الذى يوجد فى الرقم المذكور، ومتجهاً من اليمين إلى اليسار، حتى يصل إلى العامود الذى يوجد فيه البرج الذى وضع يده عليه، فيجد عددًا يدل على الصفحة التى يوجد فيها ما يود معرفته من طالعه.

ويعتقد أيضاً أن فى كل ساعة من ساعات اليوم برجاً له السيادة والسلطان. ويقومون عند معرفة الطالع بعمل الحجاب المناسب، وهذه صورة حجاب من الأحجية:

«بسم الله الرحمن الرحيم. شهد الله أن لا إله إلا هو.. (الآية)»

له معقبات من بين يديه ومن خلفه .. (الآية) .. الله لا إله إلا هو الحى القيوم.. (الآية) .. اللهم قنا سيئاتنا وسيئات أعمالنا وسيئات

ما يمكرون، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون. ١١٥١١ عوج
وإعواج يا عوج ما «عوج»..

وهناك كثير من الأحجية بالطبع، يختص كل منها بقضاء مصالح متعددة، والحماية من الشر والضرر، وخاصة الحسد، والعمل، وهو نوع من أنواع السحر. فإذا شكت المرأة في أن زوجها انصرف عنها، خشيت أن يكون في طريقة للزواج من أخرى، فتلجأ إلى أن «تعمل له عمل»، بأن تأخذ بعض شعيرات من شعرها، وتضعها في قطعة من العجين، وتعدّها على شكل رغيف خبز أو فطيرة ليأكل زوجها شعرها، فيزداد حباً لها، ويعود إلى حاله الأول من الاهتمام بها، وقد تذهب إلى «شيخ» متخصص ليعد لها هو العمل في شكل حجاب أو ماء ترشه عند دخول زوجها إلى البيت، أو تحت قدميه دون أن يلحظ هو ذلك، أو يشربه. ومن أشهر أنواع الأعمال التي تنتشر في ريفنا ما يطلق عليه الربط، ويعنى تعطيل الرجل وإصابته بعجز ليلة زفافه، وهذا النوع من الأعمال أكثر ما يخشاه الريفيون عند إقبالهم على الزواج، وبالطبع فكما أن هناك من يقوم بالربط، فإن هناك أيضاً من يقوم بالفك، وإعادة الأمور إلى نصابها.

ويقال عن الإنسان الذي يحالفه التوفيق والنجاح، والذي يتخطى مشكلة صعبة، أن طالعه «طالع سعد»، وإذا لم يحالفه التوفيق أو كان غير سعيد قالوا إن «طالعه نحس»، فإذا رقى واشتهر قيل إن «نجمه صاعد» أو «نجمه عالي».

ويقال عن اليوم الشؤم الذى وقعت فيه حوادث سيئة «دا كان يوم زحل»، كما يقال عن الحادثة المشئومة التى وقعت للإنسان «دا كانت وقعتته زحل»؛ لأنهم ينظرون إلى زحل باعتباره من النجوم المشئومة، والكواكب التى تجلب النحس. ومن الشائع الآن عند الإقدام على الخطبة أو الزواج أن تسأل الفتاة الشاب عن برجه، فإذا كان من البروج التى توافق برجها، ووفقاً لما هو مذكور الآن فى مئات الكتب التى تلقى رواجاً هائلاً بين القراء، كان هذا مثار تفاؤل ورضى، ومشجعاً على الاستمرار فى العلاقة أما إذا لم تكن لأبراج متوافقة، فربما كان هذا سبب نهاية لها!!!

ومما يتصل بمعرفة الطالع ما يسمى بلوح الحياة ولوح الممات وهما على هذا النحو:

| | | |
|----|----|----|
| ٦ | ٥ | ٤ |
| ١٢ | ١١ | ١٠ |
| ١٨ | ١٧ | ١٦ |
| ٢٤ | ٢٣ | ٢٢ |
| ٣٠ | ٢٩ | ٢٨ |

لوح الممات

| | | |
|----|----|----|
| ٣ | ٢ | ١ |
| ٩ | ٨ | ٧ |
| ١٥ | ١٤ | ١٣ |
| ٢١ | ٢٠ | ١٩ |
| ٢٧ | ٢٦ | ٢٥ |

لوح الحياة

ولمعرفة ما إذا كان الطالع خيراً أو شراً، يحسب اسم الشخص، واسم أمه بحساب الجمل، (كل حرف من الحروف الأبجدية العربية

- أبجد هوز حطى كلمن... إلخ - له رقم يقابله، به يتم الحساب)،
ويزاد على حاصل جمع الأسمين ما مضى من الشهر العربى،
ويطرح من المجموع ٣٠، وما بقى ينظر فيه هل من لوح الحياة أو
من لوح الممات؛ فإن كان من لوح الحياة كان هذا معناه توقع الخير،
أما إن كان من لوح الممات فهو شر.

ويعتقد أن الحياة لا يحدث فيها شيء مصادفة، بل بتأثير
النجوم، لا يقابل رجل رجلاً آخر مصادفة، ولا تقع فتاة فى حب
فتى مصادفة.. وهكذا؛ ذلك أن كل شى تحكمه الطوالع، تحقيقاً
لغاية أرادتها الطبيعة. فالشمس مصدر الحرارة، والحياة تهيمن
على العواطف النبيلة والمشاعر الجياشة، وللقمر تأثير على الأرض
وساكنيها، فمتى كان هو الكوكب الرئيسى فى الطالع أثر فى
الإنسان، خاصة فى جهازه العصبى، وقوة تخيله، فيجعل من بعض
الناس أديباً أو فنّاناً، ويجعل بعضهم مجانين، وأنه هو المهيمن على
الزلازل والعواصف والبراكين، وذو علاقة بالحروب والكوارث. ولعل
هذا التأثير الهائل الذى للشمس والقمر على حياة الإنسان هو ما
جعله يولى ظاهرتى الكسوف والخسوف أهمية كبرى، لا تدانيها
أهمية مساوية لكواكب أخرى، ذات تأثير أيضاً، وفقاً لهذه
المعتقدات. ويعتقد أيضاً أن كل إنسان خاضع لتأثير البرج الذى
ولد فيه. ولسنا فى حاجة إلى تكرار أن هذا يشكل معتقداً عاماً
شائعاً بين كل الشعوب تؤكد أبواب البخت والحظ فى الجرائد
والمجلات.

وتلعب الأحجية دورًا مهمًا في الحماية والحفظ، ودفع الضرر، وجعل العسير يسيرًا، والصعب سهلًا، وهي تكتب على ورق مخصوص بالحبر الأخضر أو الأحمر، ويطبق الورق على شكل مثلث متساوي الأضلاع غالبًا، وتوضع في جراب من الجلد، يعلقه المرء تحت إبطه أو في رقبته غالبًا؛ حتى يظل ملازمًا له، فلا يضيع منه أو يفقده، فيبطل تأثيره وهناك متخصصون في كتابة الأحجية حسب الحاجة، إذا كانت الحماية من المرض، أو إبطال تأثير الجن والعفاريت، أو استمالة قلب المحب، أو النجاح في العمل... إلخ... ومن الأحجية التي تستخدم كي تحبب الزوجات في الأزواج، والأزواج في الزوجات هذا الحجاب، ويتم إعداده بكتابة يا ودود يا ودود، يا عطوف يا رموف سبعين مرة، ثم يشفع بالجدول الآتي:

| | | | |
|---|---|---|---|
| و | د | و | د |
| و | د | و | د |
| و | د | و | د |
| و | د | و | د |
| و | د | و | د |
| و | د | و | د |
| و | د | و | د |
| و | د | و | د |

ويوضع مع الورقة قدرٌ صغيرٌ من التراب يؤخذ من تحت قدم الشخص الذي يرجى استماله قلبه، والحصول على حبه.

ويعتقد أن كلمة «بدوح» لها صفات سحرية، فإذا كتبت في حجاب أو نقشت على خاتم، كان أثرها عظيمًا في تحقيق المطالب، وبلوغ المآرب، وجلب الخير ودفع الشر، وأنها إذا حملها مسافر لم يلق في سفره تعبًا ولا نصبًا، وإذا كتبت على رسالة وصلت إلى وجهتها دون تأخير، وأن أثرها في تأليف القلوب منجرب لا يخيب؛ إذا كتبت، وتم تبخيرها، وتليت عليها المزيمة التالية:

«يا بدوح يا بدوح يا بدوح، ألف بين الروح والروح، وبحق القلم واللوح، وآدم وحوًا ونوح»، ثم تعلق في العنق. وتأخذ التميمة - الحجاب - الشكل التالي:

| | | |
|---|---|---|
| ٤ | ٩ | ٢ |
| ٣ | ٥ | ٧ |
| ٨ | ١ | ٦ |

وقد تكتب حرفيًا على النحو التالي:

| | | |
|---|----|---|
| د | ط | ب |
| ج | هـ | ز |
| ح | ا | و |

ويلاحظ أنه إذا تم جمع أرقام كل سطر، أفقيًا أو رأسيًا، فإن حاصل الجمع سيكون خمسة عشر رقمًا.

وكان من الشائع استخدام تميمة أطلق عليها عزيمة الجيوش، كانت تعد بأن تكتب بماء ورد وزعفران، وتبخّر «باللبان الذكر» و«المستكة»، على أن يكون الطالع هو الميزان، وهى على النحو التالى:

| | | | |
|--------|--------|--------|--------|
| سيهزم | الجمع | ويولون | الدبر |
| الجمع | ه ه ه | د د | ويولون |
| ويولون | د د | ه ه ه | الجمع |
| الدبر | ويولون | الجمع | سيهزم |

ويتسبب إلى هذه التميمة أنه إذا حملها من يريد منازلة عدو هزمه، كما أن قائد الجيش إذا حملها تغلب على أعدائه، وأن من استخدمها عند دخوله على العظماء هابوه وقضوا له حاجاته.

ولما كان إنجاب الذكور يلقي اهتمامًا كبيرًا بين عامة الناس؛ فقد قيل إن الرجل إذا أراد أن تلد امرأته الذكور، فليضع يده اليمنى على بطنها وهى نائمة، ويمسح عليها وهى فى بداية حملها، ويقول ثلاث مرات، وهو يديم المسح بيده:

«اللهم إذا كنت خلقت فى بطن زوجتى هذه فكونه ذكرًا، وأنا أسميه محمدًا، ربي لا تذرني فردًا، وأنت خير الوارثين، فبشرناه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبشروه بفلام عليم».

ويزعم أن الإنسان إذا فزع من شيء، فاجأه أو حدث على غير توقع منه، فإنه يصاب «بخضة»، وربما نتج عن هذه «الخضة» مرض يستعصى شفاؤه، ولذلك صنعوا آنية «طاسة» من نحاس سموها «طاسة الخضة»، وهذه الطاسة مكتوب عليها بعض الآيات القرآنية، وبعض الكلمات التي لا معنى لها، ومزينة برسوم الطيور، ونباتات يوضع فيها ماء، ثم تترك لتعرض للندى في الليل، ويضعون حولها أربعين قطعة معدنية رقيقة، ويشرب الذي تعرض للمرض نتيجة الخضة هذا الماء، فيشفى، ويعتقدون أنه إذا فقدت واحدة من القطع المعدنية بطل مفعول الماء.

ويؤدي هذا الطقس إذا حدث الفزع أو الخضة دون أن يكون في الإمكان الإسراع بوضع ماء في الطاسة وإعطائه للمخضوض ليشربه مباشرة بعد حدوث الخضة اتقاء لما يمكن أن يحدث بعد ذلك من مرض كما ذكرنا، وعندئذ يزول أثر الخضة.

وتعلق النساء في رقابهن، وفي رقاب الأطفال، أو يشبكنها في ثيابهم خاصة الذكور «خمسة وخميسة» وهي عبارة عن كف فيها خمسة أصابع وتصنع عادة من الذهب أو الفضة، ويعتقد أنها تلفت عيون الناظرين فتقع عين الحسود عليها، فلا يؤذي من يحملها؛ لأن عين الحسود لم تقع على حاملها إلا بعد أن تقع على الخمسة وخميسة، ويعلق كثير من الناس الخمسة وخميسة على كل ما يخشون حسده، خاصة إذا كان جديداً كالسيارات والبيوت وما إلى





الفهرس

| | |
|-----|--|
| ٧ | فاتحة |
| ١٥ | مدخل |
| ٣١ | حول الخرافة |
| ٣٥ | فى بدء خلق الأرض وكيفيتها |
| ٧٢ | من الرقى |
| ١٠٧ | سيطرة الخرافات وانتشارها |
| ١٣٢ | وصف آخر لسيدة حاصلة على درجة دكتوراه فى العلوم |
| ١٣٤ | ووصف من إنديانا للظاهرة نفسها |
| ١٣٥ | العلم يكشف الحقيقة |
| ١٣٩ | بداية الأسطورة! |
| ١٨١ | خرافات |



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٤١٣ / ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8885 - 3